مؤتمر مكة المكرمة الثامن

[الخطاب الإسلامي وإشكاليات العصر]

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ

١٥-١٧ ديسمبر/ ٢٠٠٧م

المحور الثالث

مشكلات تواجه الخطاب الإسلامي

بحث بعنوان :

[موقف الآخرين من الخطاب الإسلامي : ((الأسباب والعلاج))]

إعداد :

أ.د. محمد خازر المجالي

كلية الشريعة / الجامعة الأردنية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، حبيبنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد :

فإن الخطاب الإسلامي هو المعبر عن الإسلام والمسلمين، وهو ركن الدعوة إلى الله التي هي من أهم أصول الإسلام، فهي الهدف المباشر لمبعث الأنبياء، وهي التي تمثل الأساس لكل موضوعات التوحيد والعبودية التي من أجلها خلق الله البشر واستخلفهم في الأرض، فكان الإنسان بها مكرمًا ومميزًا عن كثير من المخلوقات، ولا نبالغ إن قلنا بأن رسالة القرآن الرئيسة هي موضوع الدعوة، بطريقة مباشرة –كما هو الحال في قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو بطريقة غير مباشرة وهو موضوع القسم المكي من القرآن، بل إن القسم المدني أيضًا إنما بنى التشريعات بأصولها وفروعها على أساس من مبادئ الإسلام الكلية العظيمة، التي تسهم بطريقة أو بأخرى في بيان سمات الإسلام وتشريعاته وأنها خير كلها، وفي هذا بيان وموعظة وتذكرة لمن أراد السعادة الحقيقية والاستقرار الحقيقي في الدارين.

والمسلمون اليوم مطالبون أكثر من أي وقت مضى بأن يحسنوا خطابهم، وأن يلتفوا حول دينهم، فهمًا ووعيًا وتطبيقًا، وأن يعلموا ويعوا كل ما يدور ويخطط من أجل محاصرة هذا الدين والإساءة إلى فهمه، فلا يقفوا موقف الدفاع فقط، بل لا بد من تجاوز ذلك بلا يأس إلى أن يدعوا إلى الله، فمعظم الناس في هذه الأيام أسرى لما يقال ويزعمه الإعلام العالمي ضد الإسلام، وربما أسهم بعض المسلمين من خلال اضطراب خطابهم وسوئه في إثبات بعض الشبهات حول الإسلام.

لا بد من أن يتحول المسلمون في عمومهم إلى دعاة، رغبة فيما مدح الله بقوله: "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين"، (فصلت: ٣٣)، ولا بد للأمة الإسلامية أيضًا أن تنتبه لمهمتها الدعوية، وتحتفظ بمقومات خيريتها التي ذكرها الله تعالى بقوله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر وتؤمنون بالله"، (آل عمران: ١١٠)، الأمة التي جميع أفرادها مسؤولون عنها، فهي أمة المسؤولية، "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".[1]

إن وجود الدعاة المصلحين بالخطاب الحكيم الصحيح هو صمام أمان المجتمع من أن تصيبه العقوبة والهلاك، فالله يقول: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"، (هود: ١١٦-١١٧)، ونلاحظ كلمة (مصلحون) والفرق بينها وبين (صالحون).[2]

إلا أن حقيقة الواقع المعيش، حيث الإفلاس الحضاري لدى كثير من الشعوب رغم تقدمها المادي، ومع تزايد ظاهرة الهروب من طغيان المادة والفراغ الروحي إلى الأمن الحقيقي المتمثل في المنهج العقلاني المتكامل المتوازن الصحيح وهو الإسلام، وذلك بإسلام عدد كبير من الناس غربًا وشرقًا، فلا بد من أن يثير ذلك في نفوسنا نحن المسلمين شعور الاعتزاز والثقة بهذا الدين الذي حاول كثيرون تشويهه ورميه بكل صفات النقص والرجعية والتخلف، وإذ بالأيام تثبت تفوق هذا المنهج الكفيل بإيصال السعادة الحقيقية للإنسان، حين يلبي حاجاته كلها، بتوازن وشمول وواقعية تشهد كلها بأن هذا الدين من عند الخالق الأعلم بما يصلح لهذا الإنسان.

أما فيما يتعلق بمشكلات الخطاب الإسلامي، وعلى وجه التحديد موقف الآخرين من الخطاب الإسلامي، فلا بد من أن نقف عند الأسباب والعلاج، فمن حق غيرنا أن يفهمنا الفهم الصحيح، ومن حق ديننا علينا أن نبلغه على أفضل وجه وأحكمه،

---

[1] متفق عليه من رواية ابن عمر، فقد رواه البخاري في صحيحه في الأرقام التالية: ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١؛ ومسلم في صحيحه برقم: ١٨٢٩.

[2] انظر في هذا الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تفسير الآلوسي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ١٢/١٦٣-١٦٤؛ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٩٨٨)، ٩/٧٥-٧٦؛ محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، (دار المعرفة، بيروت، ط/٢)، ١٢/١٩٠-١٩٢.

فنحن مطالبون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى بصيرة، ومن الحكمة والبصيرة أن يكون خطابنا مناسبًا للمدعو، أن نراعي الأولويات، أن نحقق مقولة "لكل مقام مقال"، ومقولة: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"، وغيرها من المقولات والشعارات الرائدة التي تبصر المسلم بأبجديات الخطاب الإسلامي، وأنه علم وفن، وأن نتعبد الله به، حين نسير على خطى الأنبياء عليهم السلام، حين نحقق ما قاله حبيبنا صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: "لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم".[٣]

وللحديث في نظرة الآخرين إلى الخطاب الإسلامي: الأسباب والعلاج، فلا بد من الرجوع إلى كتابات هؤلاء، ومواقعهم، والاحتكاك بهم، ومن نافلة القول أنني درست مرحلة الدكتوراه في بلد غربي هو بريطانيا، وقمت بزيارة دول غربية أخرى مثل ألمانيا وأمريكا، إضافة لدولة من شرق أوروبا هي بلغاريا، ولا أبالغ إذا قلت إن المعضلة الرئيسة عند الغربيين هي في العلمانية التي حلت محل الدين إثر ما يسمى بالثورة الفرنسية وما تبعها من الثورة الصناعية، إن الخطاب الديني عموماً غير مقبول، فكيف إذا كان إسلامياً!؟ سيما وأن هناك مخزوناً من التشويه ضد الإسلام قد درسه أولئك في مناهجهم، وهناك الصورة المشوهة عملياً عن العالم الإسلامي، حين يصوَّر على أنه مجتمع بدوي متخلف، أو مجتمع منفتح على الحضارة من دون أصول.. إلى غير ذلك من الأمور التي تشكل في ذهن الغربي صورة الدماء أو النساء المظلومات أو البيئة الساذجة أو الجهل أو العبودية.

وإذا انتقلنا إلى الخطاب الإسلامي في عصر العولمة، نجد الأمر أكثر اضطراباً، فقد واكب الصحوة الإسلامية صحوة شيطانية، بل هجوم معاكس قوي من الغرب، تمثل أخيراً فيما يسمى بالحرب على الإرهاب، الذي غالباً ما يعنى به الإسلام الملتزم، الإسلام العملي الذي يدعو إلى أسلمة الحياة، وقد أثر هذا كثيراً على الصحوة، بل على المسلمين

[3] رواه البخاري في صحيحه من رواية سهل بن سعد في الأرقام التالية: ٢٩٤٢، ٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠.

عموماً، مما أدى إلى اضطراب الخطاب، وعدم اتساقه، هذا بين المسلمين أنفسهم، فكيف بغير المسلمين!؟

والمطلوب هو الخطاب المتوازن، البعيد عن ردة الفعل أو العاطفة، أن لا نتأثر كثيراً بحجم كره غيرنا لنا، أو بحجم ظلم غيرنا لنا، وهذا ما أكد عليه القرآن في رد الانفعالات، كما قال مثلاً: "ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"، وقوله:"ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى".

والذي يعنينا أكثر شيء هنا في بحثنا هذا أن نبحث عن نظرة غيرنا إلى خطابنا، لنحاول من خلال التغذية الراجعة أن نحسن خطابنا، أن نعرف ما يصلح وما لا يصلح، وما الأولويات في ذلك، وقد قيل لي لما ذهبت إلى أمريكا أن لا تسأل الشخص عن ثلاثة أمور: عمره ودينه ومرتبه، ويا لها من مسائل فضولية قد أدبنا ديننا على تجاوزها حين قال صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وسأبدأ بتمهيد يحوي قرار مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في دورته الخامسة عشرة حول الخطاب الإسلامي، ثم بفصل أول وفيه مباحث مفصلة في أسباب موقف الآخرين السلبي من الخطاب الإسلامي وعلاجها والتي لها علاقة بنظرتنا تجاههم، ثم الفصل الثاني حول الموضوع نفسه ولكن بسبب من الآخر، ثم بفصل ثالث حول أسس الدعوة إلى الله، التي تبرز أهمية الخطاب الإسلامي بشكل عام:

التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين:

قرار رقم ١٣٢ (١٥/١) بشأن الخطاب الإسلامي ومميزاته والتحديات التي تواجهه

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته الخامسة عشرة بمسقط (سلطنة عُمان) من ١٤ إلى ١٩ المحرم ١٤٣٥هـ، الموافق ٦ – ١١ آذار (مارس) ٢٠٠٤م، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع الخطاب الإسلامي ومميزاته والتحديات التي تواجهه، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، واستحضار ما جاء في الذكر الحكيم من وجوب سلوك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى، وما حفلت به السُّنة والسيرة النبوية من نصوص قولية ونماذج عملية في مراعاة أحوال المخاطبين، واختيار الأسلوب المناسب الذي يقتضيه المقام، وكون الخطاب الإسلامي يتسم بالاعتدال والتوازن، وبالنوع بحسب من يوجه إليه، قرر ما يأتي:

(أ) المقصود بالخطاب الإسلامي طريقة التعبير التي تُبين حقائق الإسلام وشرائعه في شتى مجالات الحياة العامة والخاصة.

(ب) إن ما يثار حول هذا الموضوع في الظروف الراهنة يوجب تجلية خصائص الخطاب الإسلامي ودفع الشبهات عنه، لصدّ الهجمة لجائرة على الإسلام، ومقاومة الحملات الإعلامية التي تعمل على تشويه حقائقه.

(ج) لا يجوز أن يؤدي تجديد الخطاب الإسلامي، بدعوى مواكبة المتطلبات والمعطيات العصرية، إلى تغيير الثوابت أو التخلي عن أي مبد من مبادئ الإسلام أو الأحكام الشرعية المقررة.

ويوصي بما يأتي:

(أ) العمل على تكامل جهود الدعاة والمفكرين المعنيين بالخطاب الإسلامي، سواء في المجتمعات الإسلامية أو في أوساط غير المسلمين، لمراعاة ما يقتضيه منهج القرآن والسُّنة من إيصال الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجنب ما ينفر من قبول دعوة الحق.

(ب) ضرورة الاستفادة من جميع وسائل الاتصال والتقنيات الحديثة لتيسير إيصال الخطاب الإسلامي إلى الناس على اختلاف مستوياتهم.

(ج) دعوة الحكومات الإسلامية والقادرين، إلى بذل المال والجهد في إيصال الخطاب الإسلامي من خلال وسائل الإعلام، وبخاصة الفضائيات وشبكة الإنترنت، لإيضاح حقائق الإسلام، وإزالة الشبهات، وتفنيد التهم التي تثار حوله، والعمل على تنقية هذه الوسائل من كل ما ينافي الإسلام.

(د) العمل على الاجتهاد البنّاء والتجديد في أسلوب الخطاب بما يجمع بين الأصالة والمعاصرة، أي مراعاة الثوابت والمتغيرات في رعاية المصالح الطارئة والأعراف التي لا تصادم أصول الشريعة.

والله الموفق

الفصل الأول
موقف الآخرين السلبي تجاه الخطاب الإسلامي مما له علاقة بنا: الأسباب والعلاج
المبحث الأول
غلبة الجانب التقليدي على الخطاب الإسلامي

وأعني بالجانب التقليدي الجمود والوقوف عند نمط ما، من دون تجديد في الطرح من جانبي المحتوى والأسلوب، أما المحتوى فلا غبار على ما هو من ضمن الأصول والكليات والمصدر الصحيح، أما من حيث الفروع، أو من حيث الانتباه إلى متطلبات الواقع، فلا نجد اهتماماً بذلك عند كثير ممن هم معنيون بالخطاب الإسلامي.

وإذا انتقلنا إلى جانب الأسلوب، فهو أقرب إلى الجمود منه إلى الابتكار واستغلال التكنولوجيا عند كثيرين، ومن خلال تنقلي في أكثر من جامعة عربية —مثلاً– أجد الطابع التقليدي على أسلوب كثير من المتخصصين في الشريعة الإسلامية، فهناك حواجز وهمية صنعها هؤلاء بينهم وبين الابتكار والتجديد.

وإذا جئنا إلى الخطابة في المساجد، فهناك أركان للخطبة بينها الفقهاء، ولكننا بعد ذلك أمام الأمرين المذكورين سابقاً: الأسلوب والمحتوى، وبعض ما له علاقة بأسس الخطاب والدعوة التي سنبينها في الفصل الثالث. وفي هذا السياق فإنني أطرح مسألة للنقاش وهي إمكانية استخدام الوسائل التكنولوجية في خطبة الجمعة، أو على الأقل في درس المسجد، وأعني على وجه التحديد استخدام الحاسب الإلكتروني (الكمبيوتر)، وجهاز العرض (داتا شو)، لما لها من أثر كبير في جلب الانتباه وتبسيط الشرح، ولنتذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان يستخدم الوسائل المتاحة في زمنه، واستخدام لغة الجسم، وفي ظني أنها رسالة لنا أن نستخدم كل ما يعين على الفهم، وما يزيد في البيان، فلا نكتفي بحاسة واحدة هي السمع، فليشترك البصر، وإعمال الفكر، وغيرها في الاستعداد الكامل للتلقي والتفاعل.

إنه لا بد للخطاب الإسلامي من حركة تجدّد منضبطة في الشكل والمضمون والحركة والمنهج، فالإنسان مخاطب في عقله وعاطفته وآماله وتطلعاته. فهناك موضوعات من الواجب الحديث عنها والتركيز عليها، وتجلية صورة الإسلام الرائعة عنها، كالحضارة والعلم وحقوق الإنسان والأسرة والعلاقات الاجتماعية ونموذج الاقتصاد الإسلامي والأخلاق الإسلامية والعلاقات الدولية وأسباب السعادة الحقيقية.

ونقول: هل التجديد أمر يفرضه الواقع، فنحن مضطرون لمجاملة الغرب والآخر، أم أنه سمة مرنة في طبيعة هذا الدين؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد من إدراك طبيعة هذا الدين، إنه ابتداء لكل الناس، إنه الرسالة الخاتمة، وكتابه خاتم الكتب، والمعجزة الخالدة، فالذي ترتاح النفس إليه أن الأصل في خطابنا أن يكون فيه تجديد وتطوير، أما المجاملة فلا ينبغي أن تكون أصيلة، بل هي أقرب إلى ردة الفعل، وهي التي لأجلها ربما يقع بعض المجاملين في أخطاء منهجية وعلمية ودينية، كما هو حال جيل من المجددين المنبهرين بالحضارة الغربية إبان الاستعمار الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعلى عكسه تماماً يقف جيل من المجددين الناظرين إلى الحضارة الغربية من داخلها، وعايشوها وعلموا سلبياتها وصرخاتها المؤذنة بانهيارها الوشيك.

ويرى بعض الكتّاب كالمسيري أن كلا الجيلين القديم والجديد لم يؤسسا منظومتهما الفكرية انطلاقاً من المنظومة الإسلامية وحسب، وإنما نتيجة تفاعلها مع الحضارة الغربية في الوقت ذاته، ويرى أن هذا أمر طبيعي للغاية باعتبار أن الحضارة الغربية هي التي فرضت سيطرتها ومركزيتها على العالم عسكرياً، وألقت تحدياً كان يجب الاستجابة له بطريقة ما، ولكن بسبب الانبهار والإعجاب الساذج بالنور الغربي لم ير الجيل القديم –جيل محمد عبده الذي ساد حتى منتصف الستينيات– سلبيات الحضارة الغربية وفظائعها، كما لم تصل إلى يديه نتاجات الخطاب النقدي الغربي، الأمر الذي تنبه له أصحاب الخطاب الجديد، فلم يُظهروا الإعجاب نفسه تجاه الحداثة الغربية، بل نجد خطابهم ينبع من نقد جذري لها، وهذا الخطاب الإسلامي الجديد هو جزءٌ من تيار

عالمي كبير أحسَّ بأزمة الحداثة الغربية وأخذ أشكالاً مختلفة في أرجاء العالم، وأخذ شكلاً إسلامياً في العالم الإسلامي.[٤]

ولا يعني نقدنا لجيل المقلدين للغرب أن نمدح المجددين المعاصرين كلهم، فهناك من جانب الصواب، كأولئك الذين استحيوا من تشريعات الإسلام، ولا يرونها مناسبة للواقع، كما فعل محمد شحرور، وغيره من دعاة الحداثة أمثال نصر أبو زيد ومحمد آركون ومحمد عابد الجابري.

والحقيقة إن الحداثة عند الغربيين ميدانها متأقلم مع مبادئهم، وليس بالضرورة أن نلتقي معهم على كل شيء، يقول سامر رشواني: "لقد قام مشروع الحداثة الغربي منذ عصر الأنوار حتى بدايات القرن العشرين على مجموعةٍ من المبادئ والقواعد والفلسفات التي تؤكد باستمرار على قيم العقلانية والتقدم والموضوعية وغيرها، ثم بدأت تبرز حركة مضادة في فلسفة العلم وتاريخه، وعلم الاجتماع المعرفي وعلم نفس المعرفة وغيرها من الفروع العلمية المستحدثة، تقوم على إعادة النظر في طبيعة العلم والمعرفة، وتقدّم خلخلةً لكثيرٍ من المفاهيم المقدسة التي قامت عليها الحداثة الغربية، وهكذا حين حاول البعض تحليل أسس الثورة العلمية، وفهم كيفية تطورها إنما كانوا يمهدون بهذا لنقدٍ جذري شديد لهذه الثورة بمبادئها وتقاليدها المختلفة، فحين قدم توماس كوهن في كتابه (بنية الثورات العلمية) مفهوم النموذج المعرفي أو الجذر المعرفي المعرّف بأنه جملة المعتقدات والقيم المتعارف عليها والتقنيات المشتركة بين أفراد جماعة معينة، أي رؤية معينة للعالم يشترك فيها جماعة العلماء والمفكرين،[٥] إنما كان يمهد -ربما عن دون قصد- للتأكيد على

---

[4] عبد الوهاب المسيري، معالم الخطاب الإسلامي الجديد، ص: ١٧١-١٧٤. ويرى المسيري أن من هؤلاء المجددين الجدد مجموعة من المفكرين والمؤسسات الفكرية من أمثال: مالك بن نبي، راشد الغنوشي، طه جابر العلواني، بشير نافع، راجي الفاروقي، منى أبو الفضل، طارق البشري، فهمي هويدى... المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر وغيرهم.

[5] توماس كوهن، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني والثقافة والفنون والآداب ١٩٩٢، ص: ٢٣، ٢٥٧، ١٦٥.

نسبية النموذج المعرفي، وبالتالي للمعارف والعلوم التي تبنى عليه كما مهد لنقدٍ واسعٍ للحداثة، وعلى نحو قريب طرح (فوكو)[٦] مفهوم المعرفة باعتبارها أيضاً شبكة مفهومية تتضمن كل الأنماط المعرفية في حقبة معينة، ولتصبح مع مفاهيم مثل العقل والموضوعية سلطة ذات بعد ميتافيزيقي، وترتبط بقوى الدولة والمجتمع العلمي ونحو ذلك من أمور تبعدها من فرضية المصداقية العلمية الموضوعية البحتة".[٧]

فالذي نريده من تجاوز الخطاب الإسلامي للمنهج التقليدي هو البحث عن أي جديد نافع، وأن يكون التطوير جزءاً مهماً من رؤانا ومناهجنا واستراتيجياتنا، فلا يعني التمسك بالكتاب والسنة نبذ التجديد والتطوير ومواكبة العصر، بل إن روح تعاليم الكتاب والسنة ترتقي بالمسلم ليكون في أعلى مراتب الدعوة والخطاب والتعامل، ونحن أوْلى من غيرنا بكل جديد نافع، وبكل خطاب مآله إلى خير.

فلنبحث عن الأمور التي تؤثر في نفسية الآخر، وكما يقال: لكل مقام مقال، فربما يكون الجديد هو الإعجاز العلمي الذي يوضح صدق القرآن وأنه من عند الله تعالى، وربما يكون في استمالة العاطفة الروحانية التي يفتقدها الغربيون عموماً، وهكذا. وربما يكون استخدام الخطابة أمر غير مؤثر، وبديله استخدام التكنولوجيا الحديثة، عرضاً وصوتاً مع التعقيب، وهكذا، والمهم في العموم أن لا نقنع أنفسنا بضرورة أن يلزم الآخر منهجي الخطابي، ومادتي الخطابية.

إن هذا الدين حيوي عالمي فيه القدرة على المرونة والقابلية على احتواء الناس جميعًا، هو دين للعالمين، لا للعرب أو جنس من الناس فحسب، قال تعالى: "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا"، (الفرقان: ١)، وقال: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، (سبأ: ٢٨). ومن هنا فلا يمكن

---

[6] ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦، ط٢، ص: ١٧٦.

[7] سامر رشواني، الآخر المستبطن، نقد الخطاب الإسلامي الجديد.

أن يكون التقصير في عدم إيمان الناس راجعًا إلى الدين، إنما المشكلة في أتباع هذا الدين، فهمًا له وانتماءً له وغيرة عليه ودعوة له.

هناك شيء من الإعجاب بل الانبهار بالحضارات الأخرى إلى درجة أن يستحي بعضنا من تاريخه وتشريعه، الأمر الذي يؤدي بالخطاب الإسلامي أن ينسلخ عن مقصوده وأصوله، وبالتالي تشويه الصورة الناصعة لهذا الدين، فالدين جميل بمنطقه ومحتواه وشموليته وتوازنه وواقعيته ولو بدا لبعض الناس أنه قاس أو شديد، فالمشرع هو الله تعالى الأعلم بما يصلح لهذا الإنسان، وصدق الله العظيم إذ يقول: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون"، (البقرة: ٢١٦).

المبحث الثاني

صعوبة التواصل لأسباب مرتبطة باللغة

يقول تعالى: "وما على الرسول إلا البلاغ المبين"، (النور: ٥٤)، ويقول: "وما علينا إلا البلاغ المبين"، (يس: ١٧)، ويقول على لسان نوح: "إني لكم نذير مبين"، (نوح: ٢)، وهذا أمر واضح كل الوضوح من خلال دعوة الأنبياء لأقوامهم بأن تكون الدعوة ويكون الخطاب واضحًا مبينًا.

ولكي يتأكد موضوع الوضوح في الخطاب والدعوة فإن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه، قال سبحانه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"، (إبراهيم: ٤)، فلا بد أن يفهموه، ولا بد له أيضًا أن يفهمهم، وهذه مسألة ينساها كثير من المسلمين هذه الأيام حين لا يؤهلون الكوادر المناسبة من أهل كل لغة لبيان الدعوة لأولئك القوم، ولنا العبرة فيما طلبه موسى عليه السلام من ربه عندما كلفه بالرسالة، فطلب منه أن يرسل معه أخاه هارون فقال: "وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا فأرسله

معي ردءًا يصدقني، إني أخاف أن يكذبون"، (القصص: ٣٤)، فليس الأمر متعلقًا باللغة فقط، بل هناك الفصاحة، وهذا أمر يقودنا إلى أن يركز الدعاة على هذا الأمر، وأهل كل لغة أدرى بما في لغتهم وفي عاداتهم، بل إن الناحية النفسية أكثر اطمئنانًا عند المدعو إن كان الداعي له من مجتمعه ويتحدث بلغته.

ومن خلال تجربتي المتواضعة في الغرب، فإن أكثر ما ينقصنا نحن المسلمين في الغرب هو المتمكنون من العلماء بالرغم من إتقانهم لغات القوم، وما ينقصنا في الشرق هو المتقنون للغات الأخرى بالرغم من التمكن العلمي، فلا بد من اجتماع العلم ووسيلة نقله معًا، ولا بد من برمجة لتوفير العدد الملائم الكافي لهؤلاء وإلا تحملنا جميعًا وزر التقصير في تبليغ دين الله تعالى.

ولا أبالغ إن قلت إن أكثر ما يصد الآخر ويجعله متخندقًا عند رأيه هو عدم البيان الكافي له عن فكرة ما، بل ربما يتشوه المفهوم إن لم يكن العالِم أو الداعية متمكناً من اللغة في خطابه، فاللغة هي المفتاح الذي به يلج أحدنا إلى الآخر، ويكون التفنن في الخطاب وتنويع موضوعاته مكملات لهذا الخطاب.

ولننظر بواقعية إلى أي متكلم أو خطيب، كم تكون ثقته بنفسه عالية عندما تكون لغته سليمة، حتى لو كنا نتحدث عن اللغة العربية، ولننظر إلى حال ذاك الذي يلحن في كل جملة، فما هو انعكاس ذلك على السامع من جهة، وعلى المتكلم نفسه من جهة أخرى، ومن هنا يهرب كثيرون إلى العامية، ويكون هروبه أحياناً بحجة النزول إلى مستوى المخاطبين، ولا يدري أنه مع مرور الزمن سينسى لغته، ويعوِّد الآخرين على المستوى المتدني من اللغة، الأمر الذي إذا تراكم فإنه سبب مهم في ضعف التذوق العام للقرآن واللغة عند المتلقي والمستمع على حدٍ سواء.

ونحن الآن نشهد لواحد مثل أحمد ديدات، على قوة علمه وحجته من جهة، وعلى متانة تثبته من اللغة الإنجليزية، وقد كان شوكة في طريق المنصرين، وكاشف أمرهم ووهنهم ووسائلهم، وليت في الأمة أمثال ديدات. أما أولئك الذين أسلموا من الغربيين، فهم متقنون للغاتهم، ولكن المشكلة في علمهم أنه لا يصل إلى العمق المطلوب،

وهذا حال معظم الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، فلا يصلوا في الغالب إلى درجة الإتقان للغة القوم، فهناك من الأمور الاجتماعية والأقرب إلى عادات القوم مما لا يطلع عليه إلا الذين يعيشون مددة طويلة، وهذا لا يتأتى إلا للقليل من المتخصصين في الدراسات الإسلامية، الذين يعوّل عليهم في الخطاب الإسلامي.

المبحث الثالث

اللهجة الاستعدائية عند بعض المسلمين وغلبة أسلوب الترهيب على الخطاب الإسلامي

لا نبالغ إن قلنا بأن الظروف التي توالت على الأمة الإسلامية قد أثرت كثيراً على نفسياتهم، فالنفوس جُبلت على حب من أحسن إليها وكره من أساء إليها، فكيف إذا كانت الإساءة احتلالاً وسفكاً للدماء وتشويهاً للدين واغتصاباً للأرض وقتلاً للحرية والإرادة!؟ فلا شك إن آثارها كثيرة عميقة، وقد لا نضمن حلم الناس وعفوهم عن هؤلاء ومن وراءهم، ولكننا نؤكد على مفهوم قرآني أن لا نساوي بين الجميع في المسؤولية، وأن بعض هؤلاء ربما أنّبه ضميره عن فعلته السابقة، وقد تم ما تم، ولكن يبقى الأمر المهم وهو أننا دعاة رحمة، نبتغي بدعوتنا وخطابنا أن نصد الناس عن النار كما وصف النبي الكريم نفسه صلى الله عليه وسلم.

ونتيجة الوضع الحالي للعالم الإسلامي، فإن الأمر تدرج ببعض المسلمين ليصل إلى أسلوب العنف المسلح تجاه الآخر، فليس الخطاب القاسي فقط، وليس منهج التكفير والاستعداء حتى للأبرياء فقط، بل العنف المسلح والقتل العشوائي، وأحياناً بلا ضوابط شرعية، مما أسهم في تشويه صورة الإسلام في أنظار الآخرين جميعاً.

وقد وقع مثل هذا العنف على المسلمين أنفسهم، حين صنف بعضنا بعضاً أصنافاً لا مرجعية حقيقية وراءها، حين ينتشر الجهل، ويُلغى العقل، ويفهم أحدنا النص وفق رؤاه الخاصة وهواه، تماماً كما ضل الخوارج من قبل، حين قتلوا الصحابة وكفروهم،

وهم أشد الناس عبادة كما وصفهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونقول إنه قد يكون لهذا العنف أسبابه من حيث التضييق على الحريات أو إحلال العلمانية، ولكننا في النهاية أمام صورة مشوهة عن الإسلام في نظر غير المسلمين.

إننا الآن نعيش مع عالم منفتح، تيسرت لنا فيه سبل الدعوة والخطاب، يمكن لأحدنا أن يدعو بالمنهج السلمي ويؤثر في قطاعات عريضة، ولنا في سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فكم كان أولئك الصحب الكرام الذين اشتركوا في صلح الحديبية، في بيعة الرضوان، إنهم ألف وخمسمائة تقريباً، وهم خلاصة تسع عشرة سنة من الدعوة، بينما كان عدد الذين شاركوا في فتح مكة بعيد البيعة بعامين قرابة العشرة آلاف، فمن أين جاء هذا الفارق الكبير في الرقم!؟ فلنا أن نستغل السلم في الدعوة، ونحسن خطابنا، ولا يعني هذا ترك الجهاد والقتال، ولكن للجهاد ميادين متنوعة وأنواع مختلفة، وللقتال أحكامه وضوابطه، ولا يجوز للعواطف أن تحركنا، ولا للهوى أن يسيطر علينا، فما أجمل التوازن في حياة المسلم، وما أجمل أن نعيش بنفسية المرتبط بالله تعالى، المستشعر رحمة الله على العباد، وأنه يريد أن يكون الوسيلة التي بها يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

لقد تشكلت عند كثير من الملتزمين تلك الصورة السلبية عن الآخر عموماً، والعدل يقتضي التفريق بين المباشر للعداء والساكت أو الجاهل، تماماً كما هو حال الآخر اليوم، فليس كل الأمريكيين أو الغربيين أعداءً، فهناك من يحمل فكرنا المناهض لأولئك، هناك من الغربيين من يهاجم الغطرسة الغربية أكثر مما نفعله نحن، فماذا نقول لهؤلاء، وإن خالفونا في العقيدة!؟

وعلى العموم فإنه يشوب تصور المسلمين للآخر مضامين مختلفة لا تشجع على خطابه والحوار معه، كأن تصوره عدواً متربصاً يلزم التربص به، أو كافراً شريراً يتعين جهاده وإهانته، أو -على الاقل- مجهولاً يتعين الحذر والتوجس منه.

وصحيح إن التصور السلبي وما يترتب عليه من الحذر والتوجس من الآخر وسوء الظن به لا يكون بذات القدر مع كل آخر، بل يتباين مع تباين عوامل عدة لعل من أهمها الخلفية التاريخية والخبرة الواقعية.

ومن الواضح والجدير بالذكر أنّ تخوف المسلمين من الآخر الغربي أكبر وأشد من تخوفهم من الآخر الآسيوي أو الأفريقي، ولكن يبقى هناك دائماً عند بعض المسلمين قدر من سوء الظن، والحذر والتوجس حتى من الآخر العربي أو المسلم.

ولنأخذ مثالاً على المستوى السياسي، فيلاحظ الحضور المؤثر للتوجس وسوء الظن في العلاقات بين بعض الحكومات و بينها وبين التنظيمات المعارضة، بل والمواطنين أو الشعب عموماً، ومما يعكس ذلك بشكل واضح تضخم أجهزة الاستخبارات، سواء الحكومية أو الحزبية، وحرص الكثير من الحكام على إبقاء مفاصل السلطة الحساسة في أيدي الأقرباء فقط.

ومن مظاهر التوجس والحذر على المستوى الاجتماعي التردد الشائع من الزواج من الآخر، أو حتى الآخر القبلي أو العائلي.

ومن الطبيعي –كما يذهب بعض الكتّاب– أن يدفع مثل هذا التوجس أو الحذر وسوء الظن العرب والمسلمين إلى الشك في سلامة أو جدوى الحوار مع الآخر بسبب الشك في أهدافه من الحوار ومقاصده منه. ومن الملاحظ بهذا الصدد أننا لا نكاد نجد حواراً بادر الغرب إلى طرحه ولم يساور الكثير من المسلمين الشك في أهداف ذلك الحوار، فالحوار الديني يعتبر في نظر البعض محاولة للتبشير أو لصرف المسلمين عن دينهم، والحوار السياسي يهدف الى التطبيع مع اليهود وتمكين النفوذ الغربي، والحوار الثقافي يهدف الى استبدال الثقافة الغربية بالثقافة الاسلامية، والحوار الاجتماعي يهدف إلى خلخلة القيم الاجتماعية وتفكيك الأسرة و... الخ.

وصحيح إن لهذه الشكوك أو بعضها مبررات موضوعية وأدلة ظاهرة إلا أن للهواجس والتصور السلبي للآخر دوراً في تضخيم تلك الشكوك وتعميمها لدرجة تكفي للدفع إلى الوقوع في خطأ جعل تلك الشكوك مانعاً من الحوار، ومع استبداد الحذر

والهواجس والظنون بهم يصبح المسلمون في وضع لا يشجع على الحوار مع الآخر ويقوي عندهم الميل الى العزوف عن الحوار مع الآخر اتقاءً لشره أو لعدم ترجي فائدة من الحوار معه. ولعله لولا ربط الآخر الغربي لحواراته ببعض الاغراءات والضغوط لتدنت أكثر رغبة والمسلمين في الاستجابة لمبادراته الحوارية.

المبحث الرابع

رفض الآخر نتيجة الإحباط الذي يعيشه المسلمون.

لا شك بأن هذا العصر هو عصر تراجع أهل الحق وتقدم أهل الباطل، وما هذا إلا وفق سنّة الله تعالى في التغيير والابتلاء، فما كان الله ليغير ما بقوم من العزة إلى الذل إلا بسبب من أنفسهم، قال تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، (الرعد: ١١)، وقال: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا"، (الإسراء: ١٦)، وقال: "ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، (الأنفال: ٥٣)، ولن يصاب قوم بنكسة إلا بسبب من أنفسهم، ولهذا لما تساءل الصحابة يوم أحد عن سبب الهزيمة أجابهم الله تعالى بقوله: "أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير"، (آل عمران: ١٦٥)، وبين الله حقائق النفوس، حين قال بعض الصحابة:[8] ما كنا نعلم أن من أصحاب محمد من يريد الدنيا حتى قال الله تعالى: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين"، (آل عمران: ١٥٢).

---

[8] والذي قال هذا هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، انظر القصة في تفسير الطبري، (مرجع سابق)، ٨٥/٤؛ أبو حيان ، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٠)، ٧٩/٣.

والأيام دُوَل "وتلك الأيام نداولها بين الناس"، (آل عمران: ١٤٠)، والحق والباطل في صراع مستمر، ولا بد لأهل الحق من أن يكونوا مدافعين عن حقهم، وإلا عم الباطل وانتصر وفسدت الأرض، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"، (البقرة: ٢٥١).

ونحن اليوم في تراجع بسبب من أنفسنا، ولا بد للدعوة من أن تعالج هذا الواقع بالخطاب المناسب لها، بأن تركز على وسائل العزة والنهوض، أن تعالج الخلل الذي سبّب النكسة والتراجع، أن نضع أيدينا على الجرح ونشخص الداء ونأتي بالدواء، أن لا نسمح لليأس أن يتسرب إلى قلوب عوام الناس. وإن نظرة سريعة على تجارب المصلحين عبر الزمان تظهر كم كانت عنايتهم بإصلاح واقع المسلمين، والتركيز على الصف المسلم أولاً، ثم بعد ذلك يكون الانطلاق إلى الآخرين.

فلا بد للدعاة من مراعاة عدة أمور في هذا المعطى الصعب:

١. نبذ اليأس فإن اليأس أول درجات الهزيمة النفسية التي تؤول إلى الهزيمة المادية، والقرآن بقصصه يبين حقيقة واضحة هي أن الله نصر أنبياءه وأهل الحق لما صبروا وضحوا، قال تعالى: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يُرد بأسنا عن القوم المجرمين"، (يوسف: ١١٠). ويعلمنا القرآن أنه ما على المؤمنين إلا الأخذ بالأسباب، وبعد ذلك فإن الأمر لله، يبتلي عباده ويمحصهم ويتخذ منهم شهداء، فقد قال الله: "ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض"، (محمد: ٤)، وقال للصحابة بعد الدرس القاسي الذي تلقوه في غزوة أحد: "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين"، (آل عمران: ١٣٩-١٤٢)، فهي حكمة الله في الابتلاء والتمحيص واتخاذ الشهداء.

٢. التركيز على معالجة أسباب الضعف، وفي الغالب فهي دينية متعلقة بضعف الاعتقاد وعدم الأخذ بالأسباب، وإلا فالخطاب القرآني واضح في بيان سنة النصر وعوامله، فيقول الله تبارك وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، (محمد: ٧)، ويقول: "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز"، (الحج: ٤٠)، ويقول: "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين"، (الأنفال: ٤٥-٤٦).[9]

٣. ألا يؤدي بهم التراجع والذل إلى المسارعة في الحكم على الناس تفسيقًا وتكفيرًا وتبديعًا، من دون دعوة لهم ولا حوار، وكثير من الدعاة من يعلق فشله في الدعوة بأن يتشدد في إطلاق مثل هذه الأحكام.[10]

٤. أن يتذكروا بأن الأيام دول، وأن المسلمين أصيبوا بنكسات في الماضي لكنهم صححوا مسارهم وأصلحوا أنفسهم فاستعادوا عافيتهم ومكانتهم، فما هي إلا مرحلة وتنتهي، وإلا فالجولة في النهاية للحق مهما طالت جولة الباطل، والآيات والأحاديث المبشرة بانتصار الحق كثيرة جدًا نذكر منها على سبيل المثال: قوله تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"، (الأنبياء: ١٠٥)، ويقول: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا"، (الفتح: ٢٨)، ويقول: "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز"، (المجادلة: ٢١).

٥. ألا ينسيهم ظرفهم أخلاق الدعوة وأسسها، ولقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يتجاوز الحد في العقوبة لما توعد بالانتقام لمقتل عمه حمزة رضي الله عنه، فأنزل الله الآيات: "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"، (النحل: ١٢٦-١٢٨)، وكان قبل هذه الآيات في ترتيب

---

[9] انظر الإسلام والتيارات الفكرية العالمية، (مرجع سابق)، ص: ١٣٢-١٣٣.

[10] انظر من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (مرجع سابق)، ص: ٤٨-٥٠.

المصحف الآيات التي تعد الأساس في الدعوة إلى الله، والتي تبين أخلاق الرحمة والحكمة، فعندما يمر المسلم على هذه الآيات يقرؤها يتبين له أن الله تعالى يريد من نبيه التزام الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بالرغم الهم والغم الذي أصابه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"، (النحل: ١٢٥).[١١]

٦. الانتباه إلى ما قد يولده هذا المعطى من روح انهزامية عند بعض المسلمين، فاختلاف الناس في مشاعرهم وتوجهاتهم أمر طبيعي، ولكن الشيء الخطير هو أن يكون لبعضهم تأثير سلبي على مجموع المجتمع، وإن دراسة سريعة لتاريخ المسلمين تبين وجود ضعاف الإيمان ومرضى القلوب والمنافقين ومن سخروا أنفسهم آذانًا للأعداء، فإذا كان هذا النوع موجودًا زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو في غيره من العصور أكثر، فكيف بزمنٍ سمته تفوق الأعداء وتراجع المسلمين!

لقد قص الله علينا تثبيط المنافقين، وحججهم، وأعذار ضعاف الإيمان، وهي أمور ينبغي على الداعية ملاحظتها وكشف زيفها، تمامًا كما فضحها القرآن من قبل، فتحدث القرآن عن أخلاقهم السيئة كي نتجنبها من ناحية ونعرف التعامل مع أصحابها من ناحية أخرى،[١٢] ولقد أفصح القرآن عن صنف من المؤمنين ممن هم سمّاعون لهؤلاء يطيعونهم في بعض الأحيان فقال تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً

---

[11] انظر سبب نزول الآيات عند ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، (دار الفكر، بيروت)، ١١٨٩/٣-١١٩٠؛ تفسير ابن كثير، (مرجع سابق)، ٥٩١/٢-٥٩٢؛ تفسير القرطبي، ١٣١/١٠-١٣٢.

[12] ومن هذه الصفات أنهم (المفسدون، السفهاء، المخادعون، الكسالى في الطاعة، المراؤون، الذاكرون الله قليلًا، المذبذبون، المرتابة قلوبهم، القاعدون عن الجهاد، أهل الفتنة، الكارهون الحق، المستاؤون من الحسنة تصيب المؤمنين، الفرحون بمصائب المسلمين، اللامزون، المؤذون النبي، المستهزئون، الآمرون بالمنكر الناهون عن المعروف، الساخرون من المؤمنين، الواصفون ما وعد الله المؤمنين بأنه غرور، المعوقون، الذين لا يأتون البأس إلا قليلاً، الأشحة على المؤمنين، المرجفون، الكاذبون، المستكبرون، قليلو الفقه والعلم)، وهي خلاصة أوصافهم في سور: البقرة، النساء، التوبة، الأحزاب، المنافقون.

ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين"، (التوبة: ٤٧).

ولا بد أن نركز على نقطتين اثنتين لربما تُلحقان بعض المؤمنين بركب هؤلاء، وهما: اليأس والانبهار بالآخرين. اليأس نتيجة ضعف الإيمان وضعف المسلمين وقوة الآخرين، وكثرة النكبات التي تصيب الأمة الإسلامية، وفرقة المسلمين وكثرة الخلاف والاقتتال بينهم. ثم الانبهار بالحضارة الغربية وما عندها من تقدم علمي ومادي ورخاء اقتصادي وحقوق إنسان وحرية...الخ.

وأمام هذا الواقع فلا بد للداعية من علم ودراية كافيين، ليعالج مثل هذا اليأس وهذا الانبهار، فلا بد من التركيز على حقائق الأشياء لا مظاهرها، لا بد من تفحص دقيق لأحوال هذه المجتمعات وهل حققت السعادة الحقيقية لأبنائها، وهل الراحة النفسية موجودة عندهم أم هو اليأس والقنوط والقتل والانتحار. ولسنا أمام المحاكمة الحقيقية للحضارة الغربية، وإنما لا بد من لفت النظر إلى مثل هذه العيوب فيها، وإلى ما يقوله أبناء الحضارة الغربية أنفسهم عنها.

وبعد ذلك فلِمَ اليأس وقد علمنا بأن الأيام دول، وبأن ما فينا إنما هو من صنع أيدينا؟ إن هذا الواقع كفيل بأن يشحذ فينا الهمم لننطلق لا لنيأس، والله سبحانه قص علينا أحوال أنبيائه المستضعفين، والبلاء الذي كانوا فيه، ومع ذلك فقد صبروا وضحوا، وكان النصر، قال تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب"، (البقرة: ٢١٤)، ويقول: "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين"، (آل عمران: ١٣٩).

وما أجمل ما ذكره أحد الكتاب في شأن ضياع الحوار نتيجة الغطرسة والقوة الظالمة، فإن قيام العلاقات على القوة يولد لدى القويّ غطرسة القوة التي تجعله يستنكف عن الحوار مع الضعيف، بينما يولد لدى الضعيف التخوف من أن تعكس نتيجة الحوار

نفس ميزان القوى الذي يميل لصالح القويّ، وبين غطرسة القويّ وتخوف الضعيف تكون الضحية الأولى هي الحوار.

المبحث الخامس

مخاطبة الآخر على أنه عدو كله، بينما القرآن فرق بين الآخرين.

من المهم جداً للدعاة أن ينتبهوا في خطابهم إلى هذه المسألة المهمة، وهي التفريق بين الآخر العدو، والآخر المسالم، وليس هذا التقسيم بدعة مخترعة، بل هو القرآن الكريم بنصه الواضح، قال تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"، (الممتحنة: ٨-٩).

إنه نص موجِّه لنا أن نكون على مستوى راقٍ من الوعي والفهم والعدل، لا تحركنا العواطف والأهواء، بل ندرك أن وراء التوجيهات ما لا نعلمه نحن من الحكم العالية الرفيعة التي ربما تكون سبباً في إسلام هؤلاء. إنه دين الرحمة التي لأجلها بعث الله الأنبياء والمرسلين، ليقودوا الناس إلى الخير والهدى، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

إن مجرد التعامل مع الآخر، ومخاطبته الخطاب المشعر بالبر والعدل والاحترام لذاته الإنسانية، وإن خالفني في الدين والمعتقد، لهو أمر يبعث النفس على البحث، أو يبعثها على التفكير والنظر، ومراجعة المواقف، فلا بد أن وراء هذه التوجيهات دين رفع مكانة هؤلاء، ليستشعروا مع غيرهم الإخوة الإنسانية، فالناس لآدم، وآدم من تراب، وإن فرقتنا المعتقدات، فالقواسم الأخرى نسخرها لعلها تثمر في يوم من الأيام لتنتج علاقة أعمق، وثقة أرسخ، مما يقود إلى الهداية إن شاء الله تعالى.

وما أجمل أن يعيش المسلمون هذا الأمل وهذا الشعور، أن يبر الآخرين طمعاً في إسلامهم، أو على الأقل جعلهم في مرتبة قريبة، فربما كان التأثر نتيجة لأبسط الأسباب،

وسبحان من جعل القلوب بين أصبعين من أصابعه، يقلبها كيف يشاء سبحانه، نسأله الثبات والهدى.

ولنا أن نستشعر ما كان في تاريخ المسلمين من إسلام شعوب بأكملها نتيجة حسن المعاملة والقدوة الحسنة، من دون دعوة وتبليغ، بل كان البر وحسن الخلق والسلوك كل ذلك خطاباً صامتاً، ودعوة أبلغ من الجهر والبلاغة في الخطاب.

أجل، إن الخطاب الصامت المعبر عن السلوك القويم أثره أبلغ من مجلدات من الخطاب العلني، لأن المقصود الأعظم من الكلام هو السلوك والتربية والتزكية، فوجود هذه النماذج عياناً تسد مسد هذه الدعوة وهذا الخطاب، ولا تكون الحاجة للخطاب إلا في المزيد من العلم، ليكون أمر الإنسان بعد ذلك على بصيرة، ويعبد الله على علم، مستشعراً قوله تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله"، (محمد: ١٩).

المبحث السادس

تحزب المسلمين على حساب الانتماء العام لجماعة المسلمين

من الأمور المهمة التي تأثرت بالمعطيات المعاصرة التي برزت كبديل لغياب الخلافة الإسلامية مسألة وجود الجماعات والمؤسسات الإسلامية، وفق أهداف مختلفة وأولويات مختلفة، بحسب بيئة المؤسسين وأفكارهم.

ولسنا في معرض تقييم الجماعات أو بيان الحكم الشرعي فيها، ولسنا ممن يغوصون في النوايا، ولا يجوز للمسلم أن يشكك أصلًا بمن رفعوا شعار عودة الحياة الإسلامية والخلافة الإسلامية، ولكننا أمام تجمعات إسلامية، ارتضت لأنفسها مجموعة من الأهداف والوسائل، وهي حقيقة موجودة على الساحة العالمية، فما المنهج القويم للدعوة في ظل هذا المعطى؟

إن القرآن ابتداء يقرر مجموعة من الحقائق والمبادئ التي ينبغي أن تكون أصلاً في العلاقة بين المسلمين، ومنها:

١. الأخوة الإسلامية، لقوله تعالى: "إنما المؤمنون إخوة"، (الحجرات: ١٠)، ولعل أداة الحصر تشعر بضرورة أن يكون المؤمنون إخوة وإلا فليراجعوا إيمانهم، والأخوّة لها حقوق متبادلة ينبغي مراعاتها في الأحوال كلها.[١٣]

٢. الوحدة الإسلامية والاعتصام بالدين، بالقرآن، وذلك لقوله تعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا"، (آل عمران: ١٠٣)، ونلحظ كيف أكدت الآية على هذا الشيء حين أمرت به و لم تستثن منه أحدًا، ثم نهت عن الفرقة.[١٤]

٣. الولاء والبراء، فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين الخاضعين للإسلام، والبراء مما سوى هؤلاء، قال تعالى: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون"، (المائدة: ٥٥-٥٦). ومن هنا يتبين لنا أن الولاء والبراء ليسا محكومين باتباع أية جماعة، بل بالخضوع للدين وجماعة المسلمين على وجه العموم. وإن دعاة الجماعات الإسلامية ينبغي عليهم أن لا يزعموا أن جماعتهم هي جماعة المسلمين، بل هي من جماعات المسلمين، فلا يكون هناك تعصب ولا ازدراء للآخرين، بل الكل ينشد الهدف الأعظم وهو استئناف الحياة الإسلامية، وليشعر أتباع كل جماعة أن الخلاف بينهم إنما هو اختلاف تنوع وإثراء لا اختلاف تضاد وتناحر.

٤. التعاون والتكافل بين المسلمين، فالله يقول: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"، (المائدة: ٢). فالجماعات يكمل بعضها بعضًا، وتلبي كل واحدة ما هو من ميول بعض الناس دون بعض، والمهم أن لا يعلو

---

[13] انظر تفسير مفاتيح الغيب للرازي، (مرجع سابق)، ٣٨٥/٢٨-٣٨٧؛ ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر)، ٢٤٣/٢٦.

[14] انظر سيد قطب، تفسير في ظلال القرآن، (دار الشروق، بيروت، ط/١٠، ١٩٨٢)، ٤٤٢/١-٤٤٣، حيث يتحدث عن الجمع بين الأخوة والتقوى، حيث جاء الأمر بالتقوى في الآية السابقة. وانظر كذلك تفسير الرازي، (مرجع سابق)، ٣٦٦/٨-٣٦٧.

بعضهم على بعض ولا يخطئ بعضهم بعضًا، إلا ما كان يستحق النصيحة الخالصة لله.

٥. الحب والبغض إنما هما في الله، فمن أحب عبدًا فليكن حبه له في الله ولطاعته لله، ومن أبغض عبدًا فليكن بغضه له في الله ولبعده عن الله وكفره به، والإسلام يصحح المفاهيم عندما يقول القرآن: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين"، (التوبة: ٢٤)، فالإسلام لم ينكر حب هذه الأشياء الفطري في الإنسان، إنما أنكر أن تكون أحب إليه من الله ورسوله والجهاد والمؤمنين. ولقد نهانا الله عن موادّة من حادّ الله ورسوله ولو كانوا أولي قربى، فقال سبحانه: "لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون"، (المجادلة: ٢٢).

ومن هنا ندرك أن الجماعة في الإسلام إنما هي وسيلة لا غاية بحد ذاتها، فالغاية واحدة هي للإسلام، والدعوة إنما هي لسبيل الله: "أدع إلى سبيل ربك"، وليست لجماعة دون غيرها على أن ذلك هو الهدف المنشود والأمل المفقود.

وبناء عليه فإنه لا بد للدعاة من أبناء الجماعات والمؤسسات الإسلامية أن ينبذوا التعصب، وأن يوحدوا جهودهم أو على الأقل أن لا يعيق بعضهم عمل بعض، وما دام الجميع يعمل فإن العمل المخلص لله سيوحدهم ويزيل البغضاء من بينهم، فالمشكلة فيمن

هو جالس يترقب أخطاء غيره وعثراته، وإن المتحرك هو الذي لربما يتعثر، أما الجالس الذي لا همّ له إلا اصطياد أخطاء غيره فكيف تعرف أخطاؤه![15]

ولا بد للدعاة في خطابهم من أن ينتبهوا إلى فقه الأولويات، وفقه الواقع وما يتطلبان من أمور أكثر من غيرها، ولا بد من تجاوز ما هو مسموح فيه الاختلاف ولا نقف عنده لنجعله الموضوع الفاصل في تقدم المسلمين، ولا نبالغ في تهويلنا أو تهويننا للأشياء، بل لا بد من الاعتدال والنظرة الشمولية، وإلا انتصر كلٌ لرأيه وتعصب كل لفكره، وأسهمنا في اتساع الهوة بين المسلمين، وبالتالي تأخر الدعوة الإسلامية، بل صد الناس عن الإسلام، وما أجمل ما صنع ابن القيم حين أخرج المتعصب والمقلد من زمرة العلماء.[16]

إنه لا بد من ترك الخلافات جانبًا والالتقاء على ما هو أهم، حيث الوقوف صفًا في وجه تيارات التغيير، حيث الدعوة إلى الله، وإعادة الحياة الإسلامية، وهذه النقاط للالتقاء كفيلة بإزالة الحواجز كلها من طريق الدعاة ليدلوا بدلوهم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

المبحث السابع

إحياء القوميات على حساب الوحدة الإسلامية

من القضايا المقيتة التي أضعفت نظرة الآخر تجاه المسلمين ما له علاقة بالخلافات التي بنيت على أسس إقليمية وقومية، وهذا مسلك استعماري يهدف أعداؤنا من ورائه

---

[15] انظر محمد أبو زيد، أثر الظروف النفسية والاجتماعية في سلوك الداعية، (دار الوفاء، القاهرة، ط/١، ١٩٩٢)، ص: ٢٤٨-٢٥٢، حيث يركز على أسباب التعصب والجمود في الجماعات الإسلامية وينقل خلاصة رأي الشيخ محمد الغزالي والدكتور يوسف القرضاوي، ومعظمها يرجع إلى الإعجاب بالرأي والتشدد في الرأي والغلظة في التعامل وسوء الظن بالآخرين واستباحة حرمات الآخرين.

[16] ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣)، ١/٧.

إلى تفتيت المسلمين وتشتيت جهودهم وإثارة النعرات فيما بينهم، ولقد ازدادت الدعوات القومية في أوروبا في العصور الوسطى، وتأثرت الشعوب الإسلامية بفلسفة القومية،[١٧] بل نقلت إلى بلادنا لتكون البديل للوحدة الإسلامية والأخوة الإسلامية، وهو منهج قديم حيث تروي لنا كتب السيرة مثلاً كيف نظر اليهودي شاس بن قيس يومًا إلى اجتماع المسلمين من الأوس والخزرج، ووجدهم متحابين بعد أن كانوا أعداء، فغاظه ذلك، وطلب من بعض اليهود أن ينشد شعرًا قديمًا قيل في بعض حروبهم، فدبت الحمية بينهم، وتنادوا إلى حمل السلاح، ووصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: "يا أيها الذين آمنا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم"، (آل عمران: ١٠٠-١٠١).[١٨]

إن الإسلام دين عالمي يتجاوز حدود الإقليم واللون واللغة، إنه للناس جميعًا، إنه الذي جمع أكبر تجمعات البشر على اختلاف أصولهم وألسنتهم، لا بالشعار والتنظير، بل بالتطبيق العملي طيلة فترة الحكم الإسلامي، ولا نريد أن يكون تفرقنا نقطة سوداء تصد الآخر عنا، وإن حاولنا تجميل الخطاب وتنميقه.

ولا بد لنا من أن نشير إلى أن من مشكلات المسلمين وعلى وجه التحديد في البلاد الغربية التي هم فيها أقليات أن بعضهم ينقل التعصب إلى تلك البلدان، مع أن المنطق يتطلب أن يجمعهم الإسلام ويوحدهم.

ومن المضحك المبكي أن نجد الواحد منهم يصوم بناء على توقيت بلده، أو يفرح بالعيد على توقيت بلده، ويخالف في هذا أهل المسجد جميعًا، ولا أعني عيد الفطر فقط، بل عيد الأضحى. وإن هممت بنصيحة أحد المسلمين فإنه لا يقبلها منك لأنك لست من بلده ولا تتكلم لغته، وهكذا.

---

[17] انظر الإسلام والتيارات الفكرية العالمية، (مرجع سابق)، ص: ٣٥.

[18] انظر في سبب نزول الآية تفسير ابن كثير، (مرجع سابق)، ٣٨٩/١.

ولا ننسى مآسي المسلمين في بلادهم، وكم أريقت دماء بريئة بسبب من التعصب للجنس والقوم، ولعل ما جرى ويجري في بعض البلدان الإسلامية خير شاهد مؤلم على ذلك.

والقرآن يقرر مبادئ عامة جدير بنا جميعًا فهمها والالتفاف حولها، وهي ما ذكرناه سابقاً، ونزيد عليها:

١. أن أصل التفاضل بين المسلمين إنما هو بالتقوى، يقول تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير"، (الحجرات: ١٣)، ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس لآدم وآدم من تراب"،[١٩] ويقول: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".[٢٠]

٢. عالمية الإسلام والأمة الواحدة، يقول تعالى: "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون"، (الأنبياء: ٩٢)، وقد ذكرنا سابقًا الآيات الدالة على عالمية الإسلام.

٣. أن الإسلام يعد اختلاف الألوان والألسنة من آيات قدرة الله سبحانه، وليس علامة على تفضيل صنف على آخر، فقال تعالى: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالِمين"، (الروم: ٢٢).

٤. أن تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليس علامة تفضيل مطلق، إنما لتستقيم الحياة وليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًا، قال

---

[19] رواه الإمام أحمد في مسنده برقم: ٢٣٥٤٨، وانظر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق عرفان عبد القادر حسونة العشا، (دار الفكر، بيروت، ط/٢، ١٩٩٨)، ١٢٣/٥.

[20] رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم: ٢٥٦٤، وفي رواية: إلى صوركم وأموالكم.

تعالى: "أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًا ورحمة ربك خير مما يجمعون"، (الزخرف: ٣٢). فالنظرة الإسلامية إلى هذه الأمور أنها مندرجة في مفهوم الابتلاء العام، وإلا كان الناس كلهم على درجة واحدة من اللون والغنى والجمال والطول والصحة والقوة...الخ. لكن حكمة الله شاءت أن يتفاوت الناس، وأن يعطي كلًا كيفما يشاء سبحانه وبحكمته، فيبتلي من يشاء ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وكلنا مبتلون ما بين سراء وضراء، والمؤمن أحد اثنين، إما شاكر وإما صابر.

إن دينًا هذه مقوماته ومبادئه لجدير بأن يلتف الناس حوله، حين يشعروا بأنه يذيب الفروق والحواجز بينهم، حين يشعر الفرد بالأخوة الحقيقية والقيمة الحقيقية في المجتمع الإيماني العفيف المتماسك، ولقد جمع الإسلام بين بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وعمار العربي، وكانوا جميعًا سادة في الإسلام، وهذا عمر يقول: أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا، يعني بلالاً،[٢١] فيعدُّه عمر سيده، حين سبقه في الإسلام.

ومن هنا فلا بد لنا من التنبه لخطر الإقليمية، وينبهوا المدعوين أيضًا إلى خطرها، وأن يؤكدوا على مبادئ الإسلام الرائدة الحضارية، ولا بد أن تكون الدعوة إلى ما يجمع ويوحد، إلى ما يؤلف القلوب ويدعوها إلى المحبة.[٢٢]

---

[21] ابن الأثير الجزري، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بتحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العلمية، بيروت)، ٤١٨/١.

[22] انظر أضواء من الدعوة الإسلامية، (مرجع سابق)، ص: ١٢٤-١٤٢.

الفصل الثاني
موقف الآخرين السلبي من الخطاب الإسلامي مما له علاقة بهم: الأسباب والعلاج

المبحث الأول
علمانية الآخر والتزام الخطاب الإسلامي

إن ثوابت القرآن في ضرورة عبادة الله وحده واضحة لا مجال للنقاش فيها، وإن تحكيم الشرع مسألة لا خلاف عليها أيضًا، فإذا كان الله يخاطب نبيه بأشد العبارات في هذا الأمر، فإنها رسالة واضحة لكل من يريد الالتفاف على الشرع، فيقول سبحانه: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك"، (المائدة: ٤٩)، ويقول: "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين"، (الجاثية: ١٨-١٩)، ويقول: "فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم"، (الزخرف: ٤٣)، ويقول: "فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير"، الشورى: ١٥)، ويقول سبحانه: "فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين"، (يونس: ٩٤-٩٥).

ولئن كانت النصوص القرآنية بهذا الوضوح في ضرورة الالتزام بدين الله، فإنه لا مناص من أن يحتل هذا الجانب مساحة واسعة من اهتمام الداعية، سيما في عصر غلبت عليه العَلمانية والفكر العلماني، ونعني بالعَلمانية هنا فصل الدين عن الحياة، فهي اللادينية

التي تعزل الدين عن التأثير في جوانب الحياة المختلفة، وليست اللادينية التي هي بمعنى الإلحاد.

ولا نريد الدخول في تاريخ العلمانية، إنما يعنينا في الدرجة الأولى سببها الرئيس، حيث النزاع المقيت بين الكنيسة التي لبست ثوبًا أكبر من حجمها بكثير وادعت ما ليس لها وحاربت العلم والعلماء والحياة كلها، فأدى هذا خلال العصور الوسطى إلى ذلك الفصام النكد بين العلم والدين وتعظيم العقل ومحاربة الوحي، ونتجت عنه الثورة الفرنسية التي حررت الإنسان الأوروبي من القيم دينية، ثم مع ازدهار أوروبا المادي والثورة الصناعية وما تبعها من تقدم هائل في العلوم، فإن هذا كله أدى إلى ترسيخ مبدأ العلمانية بأن التقدم منوط بالتحرر من الدين، فعاد الدين مجرد شعائر يقضيها العبد فيما بينه وبين الله، لا تأثير له في الحياة في كل أبعادها.[٢٣]

والذي يعنينا هنا معشر الدعاة المعنيين بالخطاب الإسلامي هو الإجابة على الأسئلة التالية:

- هل ما انطبق على أوروبا ينطبق علينا نحن المسلمين بالضرورة؟
- هل الإسلام ضد العلم والعلماء؟
- هل كان تاريخ المسلمين رجعيًا مع تطبيقهم للإسلام أم أنه التقدم والحرية والإبداع؟

إنها أسئلة واضحة إجاباتها، بل يعرفها العدو قبل الصديق، ولكن مشكلة العلمانية أن وراءها قوىً لا تريد للدين أن يكون له تأثير في الحياة، وخاصة الدين الإسلامي الباعث على النهضة والذي يملك مقومات التغيير، الأمر الذي لا يريده أعداء الإنسانية من أن تنعم بالعيش الرغيد في ظل منهج الله. ومن هنا فقد حاولوا تشويه صورة الإسلام في تاريخه على وجه التحديد، حين صوروا الإسلام دينًا لا يجتمع فيه الحكم والاستقرار، فصوروا الجانب الدموي من الصراع على السلطة في بعض الأزمان

---

[23] انظر محمد المبارك، الإسلام والتيارات الفكرية العالمية، (دار القلم، دمشق، ط/١، ١٩٩٨)، ص: ٢٨-٣٣؛ أضواء من الدعوة الإسلامية، (مرجع سابق)، ص: ١١٢-١٢٤؛ في الغزو الفكري، (مرجع سابق)، ص: ٥٥.

على أنه الأمر المستقر في تاريخ المسلمين كله، وربطوا بين الفتن وبين الحكم الإسلامي، بل ربطوا بين الظلم بأصنافه كافة وبين الحكم، ومن هنا فالحل الوحيد هو بعزل الدين عن الحياة.

ومما طرحه العلمانيون على بساط البحث من أجل محاربة الإسلام موضوع المرأة وبعض المسائل المتعلقة بها مثل تحريرها وميراثها والزواج بأكثر من امرأة، وجعلوا هذه مسائل لا تقبل المنطق السائد في العصر الحاضر، بل لقد تجرأ البعض للقول بأن الإسلام ما عاد صالحًا هذه الأيام، فهو لا يواكب متطلبات العصر وواقعه.

ولا نريد أن نقف عند كل شبهات القوم، ولكننا نشير إلى ما بيناه سابقًا في المنهجية التي نتعامل في ظلها مع عصر هذا واقعه وهذه ثقافته. فلا بد من مراعاة أمرين اثنين في خطابنا هما:

١. الثقة التامة بصحة ما في ديننا، وأنه حق منزل من عند مَن خلق الإنسان ويعلم ما يصلح له، ولو بدا في ظاهره شديدًا، فالله يقول: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون"، (البقرة: ٢١٦)، ويكفينا شهادة على كمال هذا الدين ما ذكره ربنا عز وجل: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا"، المائدة: ٣)، فهو الدين الكامل الذي أتم به الله علينا نعمه ورضيه لنا.

٢. البحث عن مواطن الشبهات وأدلتها والرد عليها بالأسلوب العلمي النزيه، ومقارنة ذلك بما هو موجود عند الآخرين مما ظنوه خيرًا، وهو في واقع الأمر يعكس التشتت والضياع، فلئن كان للعلمانية وجه حسن فهناك وجوه سيئة لم تلب رغبات الإنسان الحقيقية، بل أخرجته من مستنقع لآخر.

ولا بد للداعية في خطابه من أن يراعي نفسية العلماني المحارب للوحي أو المنتقص لقدرة الشرع على تسيير الحياة، فهي نفسية الزاعم بأن القوانين الوضعية أنسب

للإنسان وأكثر حيوية واستجابة لمتطلبات العصر. ولا بد من أن نتفطن كذلك للمتبعين للعلمانية من دون علم ومعرفة بها، وما الذي يصلح أن يخاطب به كل واحد منهم.

ولا بد من أن يعرف كذلك أن كثيرًا من الشبهات التي أثيرت حول الإسلام قد أسهم المسلمون أنفسهم في إلصاقها بالإسلام، حين خلطوا بين العادات والدين، أو حين جمدوا عند نصوص ظنية قابلة للتنوع في الفهم، أو تعصبوا لفكرة هي أقرب للخطأ منها للصواب، وهكذا، فنكون قد أضررنا بالدين من حيث لا ندري، وأسأنا إليه من حيث نظن أننا نحسن إليه.

وفي المقابل، ونتيجة للتقدم العلمي الهائل عند الغرب ثم الانحلال الكبير في الأخلاق الناتج عن الحرية المفرطة، فلا نريد للمسلم أن يصاب بالعنف الفكري، أو اليأس أو أن يتأثر سلبًا نتيجة للتقليد الأعمى لهؤلاء، ولا أن يحارب العلم والتقدم ظنًا منه أنه إنما هو من اختصاص هؤلاء فقط.[٢٤]

إنه لا بد من بيان خطر أن يشرّع الناس بعضهم لبعض، وأن هذا انتقاص من كرامة الإنسان من جهة، وتعظيم لآخرين من جهة أخرى، فإن التشريع منوط بالخالق وحده سبحانه، ولما سمع عديّ بن حاتم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتلو قوله تعالى: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم"، (التوبة: ٣١)، عندها قال له عديّ: يا رسول الله: ما اتخذوهم أربابًا، فقال له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مجيبًا: "ألم يحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم؟ فقال عديّ: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فذلك عبادتهم إياهم".[٢٥]

إنها مسألة خطيرة لا بد من التنبيه إليها خاصة للمسلمين. أما غير المسلمين أو الذين لا يعنيهم الخطاب الإسلامي، فإن المقارنة بين أحكام البشر القابلة للخطأ والتعديل والنقص لهي أكبر دليل على تفضيل أحكام الله تعالى على تلك الأحكام.

---

[24] انظر في الغزو الفكري، (مرجع سابق)، ص: ٥٥-٦٠.

[25] انظر القصة عند الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧)، ١٠/٨٠-٨١؛ تفسير ابن كثير، (مرجع سابق)، ٢/٣٤٨-٣٤٩؛ تفسير المنار، (مرجع سابق)، ١٠/٣٦٥.

وأمام هذا الواقع المرير يقف الداعية يبحث: ما الذي يركز عليه ويجعله من أولويات اهتماماته في خطابه وفق المنهج القرآني؟ ولعل الجواب المبدئي هو في العلم أولاً، ثم بآداب الحوار والمجادلة التي بينها القرآن من خلال قصص الأنبياء ومن خلال الآيات الآمرة بالدعوة، ومن خلال معرفة حقيقة واقع المجتمعات العلمانية، هل هي في سعادة حقيقية، أم أنه الظلم والتيه؟

المبحث الثاني
مسائل مرتبطة بالمحتوى الإسلامي المعارض للانفتاح غير المنضبط عند الآخر.

إن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وإن الإسلام هو الرسالة العالمية، وإن المسلم لا يخشى الانفتاح على الناس بل هذا ما يوفر عليه الجهد الكبير، ولا نخشى من التبادل الثقافي إن ضبطنا أمورنا وأخذنا ما يتفق مع ديننا ومبادئنا، ومن هنا فليس هناك ما يخيف المسلم من عصر هذه سماته وهذه معطياته.

يقول العلماء إنه ليس هناك خيرٌ محض، كما أنه ليس هناك شرٌ محض، والحكم على الأشياء إنما هو في غالبها، وأنّى لنا أن نحكم على شيء ولّما نجربه أو يظهر خيره من شره.

وإذا جئنا لكل جزئية من هذه، فالانفتاح نعمة إن ضبطناه وإلا كان نقمة وويلاً، وعلى الداعية أن يستغل هذا الانفتاح كي يؤدي الدعوة على أفضل وجه، ولئن كان الجهاد في السابق إنما شرع لأمرين رئيسين: للدفاع عن بيضة المسلمين، وللسير جنبًا بجنب مع الدعوة الإسلامية لإزالة الحواجز التي تحول بين الناس وبين سماع دعوة الحق، فإن الانفتاح قد أزال هذه الحواجز إلى حد بعيد، والمطلوب هو تحسين لغة الخطاب

والدعوة بالصورة التي أرادها الله وبيناها في أسس الدعوة، ولا ننسى أن ديننا عالمي ولا بد للدعوة إليه من الانفتاح على الآخرين.[٢٦]

ولا نبالغ إذا قلنا إن بعض دعاة هذا العصر قد انغلقوا حتى عن أهل المعاصي والذنوب من المسلمين وهجروهم، ونسي هؤلاء أو تناسوا ضرورة أن نفرق بين الذنب والمذنب، وأن لا نستبيح حرمات المسلمين، وأن كل ابن آدم خطاء.[٢٧]

إن الانفتاح على العالم يتيح لنا حرية الاتصال به، وبالتالي عرض الدعوة على الأمم والأشخاص، وللناس بعد ذلك حرية الاختيار، وعندها فلا إكراه في الدين كما قال ربنا عز وجل،[٢٨] فإن كانت فرصة للقاء فليكن الخطاب في أجمل صورة وأبهاها، كي نعذر أنفسنا أمام الله تعالى.

والقرآن إنما يقرر مبدأ الدعوة بالحسنى، وتكييف ذلك وفق المعطيات المتاحة إنما هو من اجتهادنا في ظل الضوابط العامة للإسلام، فما الذي يمنعنا من الاختلاط بالأمم والشعوب والأفراد؟ وما الذي يمنعنا من غزو عقولهم وعواطفهم على حد سواء؟ وما الذي يجعلنا نجبن أمام معتقداتهم وشهواتهم، أن نبين حقيقتها؟ إنه لا بد من استشعار بعض أقوال السلف في ذلك، فهذا ربعي بن عامر يقولها بلا تردد أمام عظيم من عظماء الفرس: "الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".[٢٩]

إن القرآن واضح في أسسه ومناهجه الدعوية، ولكن المهم للدعاة أن يراعوا في خطابهم أن الناس المدعوين يستمعون إلى جهات عدة، وهم أحرار في ذلك، وهم يميلون

---

[26] للاطلاع على أهمية الانفتاح انظر من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (مرجع سابق)، ص: ٤١-٤٤.

[27] لقد أحسن الدكتور عبد الله الزبير عبد الرحمن وهو يضيق من حجة الاستدلال بهجرة أصحاب الذنوب عن أن تتخذ منهجًا عامًا بل خلاصة أمره أنه منهج متدرج في التعامل مع أهل المعاصي وليس قرارًا ابتدائيًا تكفيريًا، انظر من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (مرجع سابق)، ص: ٥٤-٦٥.

[28] سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

[29] انظر الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ٤٠١/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٩/٧.

إلى الأقوى حجة وأفضل أسلوبًا وأوضح دليلًا، وكلها دوافع لنا معشر الدعاة بأن تكون دعوتنا على بصيرة ووضوح وبالدليل والحكمة، وهي الأمور التي نصت عليها الآيات الكريمة وطبقها قدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما فيما يخص جانب الإعلام وثورة المعلومات والتقدم التكنولوجي، فهو بأيدينا كما هو بأيدي غيرنا، وليس عند الآخرين ما هو ممنوع علينا، ولكن الذي يتمناه الدعاة أن تكون هناك الجهات الحكومية الرسمية التي ترعى مثل هذه الأمور كونها أكبر من الجهد الفردي، ولا يستطيعها معظم الناس فرادى، فلا بد للدول الإسلامية من أن تسخر قنواتها الفضائية وإمكاناتها الإعلامية لهذا الغرض، فليس دعاة التبشير بأفضل منا ولا أكثر غيرة على دينهم منا على ديننا الحق، ولا بد من البث بلغات العالم.

وللجانب العلمي في القرآن فيما يسمى بالإعجاز العلمي دور مهم في الدعوة، فعلى الدعاة في زمن العلم أن يُظهروا هذا الجانب الرائع للقرآن والإسلام، فهي حقائق علمية مذكورة قبل زمن طويل لم يكتشفها العلم إلا حديثًا، فمن أعلم محمدًا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم بها؟ فلا بد من إظهار هذا اللون من الإعجاز ليكون دليلًا واضحًا على صدق النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد وفاته، ولكن لا بد من التحذير من الإفراط في هذا الجانب، فنقتصر على ذكر ما هو في دائرة الحقائق العلمية، لا ما هو في دائرة الظن العلمي.[٣٠]

أما العولمة، فهي وإن أراد موجدوها ومروجوها صهر الأديان والأعراف في قالب واحد لتضيع ثوابت الأمم، وتصبح كلها بموجه واحد ومبادئ مشتركة وقيم مشتركة، فإن هذا لن يتم كما أرادوا بسبب طبيعة اختلاف البشر وثقافاتهم، وإن الجانب المتفق مع ديننا من هذه العولمة هو العالمية، فلو سميت العالمية بأن تتبادل الثقافات والحضارات ما عندها ثم الناس يحكمون على الأفكار والمناهج، فهذا شيء إيجابي، لكن القوم يريدون الإجهاز على المقومات الرئيسة وسلخ الناس من أصولهم وثوابتهم.

---

[30] نعني بالحقيقة العلمية تلك التي ثبتت بالتجربة والبرهان ثبوتًا قطعيًا فلا مجال للشك فيها، أما الظن العلمي فهو الذي لا زال قيد التجربة فلم يثبت بعد.

والمسلمون والجماعات والمؤسسات الإسلامية إنما ينبغي عليم استغلال الفرص، وألا يتهيبوا من الشعارات، وإذا كان الله قد طمأن المؤمنين بقوله: "ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليمًا حكيمًا"، (النساء: ١٠٥)، فإننا نقول الشيء نفسه، فالقوم إنما يسخّرون هذه الأساليب ظنًا منهم أنها ضد الإسلام، ولكنها تعود عليهم وبالاً، حين تزيد من وعي المسلم وتبصره بالحقائق، بل يتعرف غير المسلم على الإسلام ويجد فيه ضالته، ولنا في بعض رؤوس المستشرقين عبرة حين أسلموا بعد حرب طويلة مع الإسلام وتشويهه.

إن أعداءنا أرادوا لنا أن نرزح في غياهب الجهل والضلال، فانقلب السحر على الساحر بفضل الله تعالى. ولعل تجربة القنوات الفضائية التي أريد منها تضليل الناس وغمسهم في الشهوات، وإذا بها تبصرهم وتوعيهم، والشيء نفسه يقال بالنسبة لشبكة المعلومات الدولية، فها هي المواقع الإسلامية تبرز وبشكل قوي وتشكل مصدرًا مهمًا للمعلومات لدى قطاع عريض عند المسلمين، ولا يمكن لها إلا أن تكون إيجابية صادقة لأنها في معرض المنافسة على الأفضل، والمشاهد والمستمع هو الذي يحكم ويقرر ممن يأخذ.

وعودة إلى القرآن، فما الحوار بين الأنبياء وأقوامهم وغيرهم، وما المحاجّة التي تصدّرت بها سورة آل عمران بين النبي صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران إلا دليل واضح على ضرورة مواجهة الآخرين بالحجة والبرهان وبلا تردد، قال تعالى في قصة صاحب الجنتين: "قال له صاحبه وهو يحاوره"، (الكهف: ٣٧)، فهناك الحوار الحضاري، واللقاء الحضاري والتفاعل الحضاري،[٣١] وكله مضبوط بأصول منهجنا الحكيم. ومن هنا

[31] انظر أحمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، (كتاب الأمة رقم ٣٨، ط/١، ١٩٩٤)، ص: ١٠٧-١٢٨.

فنحن لا نخشى الانفتاح، كما لا نخشى حوار الأديان أو المؤتمرات العالمية للأديان[٣٢] ما دام الحوار فيها حرًا لا تمليه الحكومات أو تنوي من ورائه تمييع الدين وتجميع الديانات في دين واحد، أما إذا كان حوارًا حرًا فهذا الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين النصارى، وهو الحوار الذي تضمن قول الله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون"، (آل عمران: ٦٤).[٣٣]

وتتمة للحوار فإنه ينبغي على الداعية المسلم أن يحرص ولو على الحد الأدنى والأهم من الدعوة، وعلى وجه الخصوص موضوع التوحيد، ليلتقي عليه الناس، ثم بعد ذلك يكون التدرج، فها هي الآية الكريمة السابق ذكرها من سورة آل عمران تبين الكلمة السواء التي دُعي إليها أهل الكتاب، ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئًا ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، فهي دعوة وتبصرة للدعاة ألا يطلبوا كل شيء مرة واحدة، فهناك الحد الأدنى، وهناك المهم والأهم، وهكذا.

وإن مراجعة سريعة لأركان الدعوة في ظل هذا المعطى تبين ما ينبغي أن يكون عليه الداعية، وما الذي يركز عليه في دعوته وخطابه، مطابقة لحال المدعو.

المبحث الثالث

تناقض روحانية الخطاب الإسلامي مع مادية الآخر.

---

[32] انظر دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، (مرجع سابق)، ص: ١٢٩-١٣٥، حيث يتحدث الشيخ دراز عن تجربته الشخصية حين أوفده لإلقاء كلمة الأزهر في أحد هذه المؤتمرات، وكانت كلمته وسيلة واضحة للدعوة والدفاع عن الإسلام.

[33] الآيات من أول السورة إلى بضع وثمانين نزلت في محاجة النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران، فكانت المحاجة في عيسى ابن مريم ﷺ، وفي إبراهيم عليه السلام، وغير ذلك، انظر في هذا تفسير الآلوسي، (مرجع سابق)، ٧٣/٣؛ تفسير المنار، (مرجع سابق)، ١٥٣/٣.

لا أحد ينكر ما لهذا العصر من توجه نحو المادة والهروب من الوحي والروح والقيم، فغدت حياة الناس تحركها المادة، وهم عبيد لها، لا همّ لهم إلا جمع المال والتمتع، فطغت المادة والشهوة على القيم والأخلاق، وتآمر الناس على فطرتهم التي فطرهم الله عليها، وأدى ذلك إلى تهديد الاستقرار الاجتماعي والأمن الحقيقي الذي يطلبه الإنسان السوي.

ولسنا في معرض توجيه أصابع الاتهام لمسيي هذا التوجه الذي يكاد يعصف بمعظم المجتمعات، ولكن الأهم أن نتدارك المجتمعات قبل غرقها، أن نقدم البديل، أن نقدم التصور الصحيح للمنهج الأقوم، حين غاب أو غُيِّب عن توجيه الحياة.[٣٤]

إن القرآن الكريم منهج للإنسان ليلبي حاجاته كلها، المادية والعاطفية والروحية والأخلاقية، إنه منهج الشمول والواقعية والتوازن، و لم يكن مجرد شعارات مثالية، بل جربه المسلمون فكوّنوا في ظله أفضل نموذج للمجتمع الطاهر الآمن المتقدم الحضاري. إنه المنهج الذي يوازن بين المتطلبات كلها، ولا يسمح لجانب أن يطغى على آخر، فهناك المادة والروح، الحياة الدنيا والآخرة، الخوف والرجاء، النزعة الفردية والجماعية، العقل والعاطفة، ...الخ، فالله يقول عن الدنيا والآخرة: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين"، (القصص: ٧٧)، ويقول جمعًا بين العبادة والتجارة: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون"، (الجمعة: ١٠)، ويقول: "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم ..."، البقرة: ١٩٨)،[٣٥] ويقول عن الخوف والرجاء: "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم"، (الحجر: ٤٩-٥٠)، ويقول عن نفسه: "غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير"، (غافر: ٣). ويخبرنا سبحانه عن

---

[34] انظر محمد طلعت أبو صير، أضواء من الدعوة الإسلامية، (مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط/١، ١٩٨٧)، ص: ٩٠-٩٤.

[35] وهي دليل على مشروعية التجارة في الحج، انظر تفسير القرطبي، (مرجع سابق)، ٢/٢٧٤-٢٧٥.

الرهبانية: "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها"، (الحديد: ٢٧)، فعدم رعايتها هو تجاوز الحد فيها.[٣٦] وعلى الداعية أن يراعي هذه الأمور ولا يركز على جانب دون آخر، بل منهجه هو الجمع بين الترغيب والترهيب.

وبهذا، فإن التركيز على جانب على حساب الآخر هو المؤذن بالانحراف والظلم، وهو الذي يقود إلى المتاهة والحيرة والضلال. وهذا الذي وقعت فيه المجتمعات المادية التي تنكرت للروح واحتياجاتها، وتنكرت للحياة الآخرة فهربت لتحوز على كل أنواع السعادة في هذه الحياة الدنيا، ظنًا منها أن لا حياة إلا الحياة الدنيا. وهذا الذي أدى بها إلى الانغماس في الشهوات بلا حدود أو ضوابط، فتآمروا على الفطرة السليمة، فعاشوا جانبًا عظيمًا من النكد والانفصام، يخبر عن هذا واقع حالهم، لا ما هو مبثوث ضمن وسائل الإعلام مما يصورهم في أفضل صورة، بل لا بد من الغوص في أعماق النفوس لمعرفة مكنوناتها، فليس كل ما يلمع ذهبًا.[٣٧]

فلو رجعنا إلى الجانب الاجتماعي والأسري، إلى العلاقات الزوجية وعلاقات الأفراد ببعضهم، والنظام الاقتصادي الطبقي، والإباحية، والجريمة بأنواعها، وغير ذلك مما أدى إلى الهروب من الواقع إلى المخدرات أو الانتحار، لأدركنا ما عليه القوم من نكد الحياة وشقائها، ولأدركنا كم هم بحاجة إلى ما يرشدهم إلى الطريق الصحيح، وهذا الذي يجعلنا نحس بقيمة ما عندنا، مما حرم منه الناس وهم في أمسّ الحاجة إليه، فلمَ نبخل به على أولئك ونحن مأمورون بتبليغ الإسلام إليهم!؟

إنه لا بد للداعية في خطابه من معرفة ما عليه القوم في هذا الجانب، ولا بد من التركيز على جوانب السعادة الحقيقية، حيث الراحة النفسية والاطمئنان الحقيقي، حيث

---

[36] انظر الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (مكتبة الإيمان، القاهرة، ط/١، ١٩٩٣)، ٣٠/٤١١-٤١٢؛ تفسير المنار، ١٠/٣٦٣-٣٦٤.

[37] لمزيد من المعلومات حول الانحراف المادي انظر محيي الدين عبد الحليم، الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي، (دار الفكر العربي، القاهرة)، ص: ١٤١-١٤٦؛ في الغزو الفكري، (مرجع سابق)، ص: ٩٦-١٠٠.

القيمة الحقيقية للإنسان. واليوم، وفي ظل العلم والحجة والبرهان، يستجيب كثير من غير المسلمين للخطاب المنطقي الذي يسبر في أعماق النفس يفتش عن كثير مما يود الواحد منهم أن يئده في غياهب نفسه ولا يريد من أحد أن يطلع عليه.

ولما بيّن القرآن أنواع النفوس: المطمئنة الساكنة الراضية، واللوامة المتصارعة مع شهواتها، والأمارة بالسوء المستجيبة لدواعي الشر، وما هي المؤثرات في كل واحدة منها، فإنها رسالة لنا معشر الدعاة أن نراعي واقع النفوس أثناء مخاطبتها.[٣٨] وبالرجوع إلى أسس الدعوة، فإننا نلاحظ كم هو القرآن عظيم حين أكد على الدعوة على بصيرة، والبلاغ المبين، والدعوة بالحكمة، أن تكون هذه دوافع للدعاة أن يعلموا حقائق المدعوين، أن يعرفوا الأولويات التي يحتاجونها، أن يراعوا مبدأ التدرج معهم خطوة خطوة، وهذا كله فن ودراية، ونحن مطالبون به.

ولا نريد أن نركز على المجتمعات الغربية أو غير الإسلامية وننسى ما عليه مجتمعاتنا التي قلدت تلك المجتمعات، بل لربما سبقتها في كثير مما هو سيئ، وساد الجهل الديني عند السواد الأعظم من المسلمين، ونراهم يختلطون بغيرهم من المجتمعات فيعطون الصورة القبيحة عن الإسلام، ويسهمون بتشويه الدين حين يظن غير المسلم بأن تصرفات هؤلاء تعكس واقع الدين، فيحكموا على الإسلام من خلال أبنائه المتنكرين له، لا من خلال حقيقته وأحكامه ومناهجه.

إن مجتمعاتنا الإسلامية بحاجة إلى الدعوة تمامًا مثل المجتمعات الأخرى، ولا بد من إسقاط الوسائل الدعوية نفسها على مجتمعاتنا، لأنهم أصبحوا كالآخر الذي نتحدث عنه الآن في بحثنا هذا، فالوضوح والبصيرة والحكمة والتدرج كلها مبادئ عامة لا نميز فيها بين مجتمع وآخر، بل هي للإنسان أنى كان، ولا بد من التركيز على ذلك، إذ يغلب

---

[38] جاء الحديث عن النفس المطمئنة في قوله تعالى: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية..."، (الفجر/٢٧-٢٨)، وعن النفس اللوامة في قوله تعالى: "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة"، (القيامة/١-٢)، وعن النفس الأمارة في قوله تعالى: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء"، (يوسف/٥٣).

على كثير من الدعاة مع عصاة المسلمين أسلوب التكفير والتبديع والإخراج من الملة، وننسى أن البلاء واحد عند الجميع، حين تنكروا لفطرتهم ودينهم، ولوجود الجهل فلا بد من الترفق واللين تمامًا كما لو لم يعرف أحدهم عن الإسلام شيئًا، ولا بد من مخاطبتهم على قدر عقولهم ومعلوماتهم والتزامهم. وتتميمًا للفائدة في هذا الجانب مع المسلمين الذين يغلب عليهم الجهل أن لا نخوض معهم في التفاصيل الدقيقة، وألا نتطرق للاختلافات بين الفقهاء، بل نقدم لهم الإسلام الصافي البعيد عن الآراء المختلفة.

ولقد عالج القرآن الكريم في آياته مسائل الانحراف العقدي، والإفراط والتفريط في الأمور، والشهوات، ووضح علاقات الإنسان بخالقه وبالإنسان وبالكون والحياة. لقد بين لنا حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، والضوابط التي يسير عليها الإنسان كي يحصل على السعادة في الدارين، وكل ذلك وغيره يصلح أن يكون مادة للدعوة ينقلها الداعية بوضوح وعلم إلى المدعو المتعطش لمعرفة ما يبحث عنه.

الفصل الثالث

أسس الدعوة إلى اللّه

وأردت من هذا الفصل تسليط الضوء على الأسس التي قامت عليها الدعوة الإسلامية والخطاب الإسلامي، لتكون أموراً عامة في العلاج لأسباب ظاهرة النظرة السلبية للآخر تجاه أمتنا ودِيننا، تضاف إلى ما سبق ذكره في الفصلين السابقين.

إن الدعوة في الإسلام ثمرة مباشرة لتفاعل المسلم مع دينه وشعوره بالمسؤولية، وهو شعور نبيل لأنه يتذكر مقولة أن من نعم الله علينا حاجة الناس إلينا، بل حاجة الكون كله إلينا،[٣٩] ومن هنا كانت هذه الرعاية القرآنية لها في مناهجها وأسسها.

فالقرآن في حقيقته كتاب هداية، أنزله الله سبحانه هدىً للناس، قال تعالى: "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين"، (البقرة: ٢)، وهدايته إنما هي للتي أقوم: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"، (الإسراء: ٩)، وهو الروح والنور الضروريان للإنسان، فبلا روح هو ميت، وبلا نور هو تائه ضال: "وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور"، (الشورى: ٥٢-٥٣)، وهو حبل الله المتين الذي دعانا الله سبحانه إلى الاعتصام به: "واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا"، (آل عمران: ١٠٣)، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي".[٤٠] وهو الكتاب الذي عصمه الله عن التحريف وحفظه لنا بنفسه: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، (الحجر: ٩)، "وإنه لكتاب

---

[39] ذكر هذه الجملة محمد عبد الله دراز في كتابه: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، (دار القلم، الكويت، ١٩٨٠)، ص: ٥٤-٥٥.

[40] رواه مسلم في صحيحه برقم: ١٢١٨، وهو جزء من حديث طويل في صفة حجه ﷺ ، ذكره النبي ﷺ في خطبة الوداع.

عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"، (فصلت: ٤١-٤٢).

ولا يمنع هذا من أن نقول بأن القرآن هو أيضًا كتاب تشريع وعلم وأخلاق، فكلها جوانب يجمعها الأساس الذي يسخر هذه الجوانب لخدمة الغرض الأول وهو الهداية، فإن التشريع ينبغي استخدامه للهداية، والعلم كذلك، وهكذا، فهي جوانب يكمل بعضها بعضًا للوصول إلى الصورة الأمثل في الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى ما يحبه الله سبحانه.

ومن هنا فإننا نلحظ على القرآن تأكيده الأسس التالية في عرض الدعوة:

١. الرحمة بالعباد وإرادة الخير لهم:

ولذلك ذكر الله تعالى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"، (آل عمران: ١٠٤)، وذلك إشارة إلى أن يتذكر الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن الهدف من عمله هو إرادة الخير للناس. ولا أدل على مبدأ الرحمة من حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهو يمثل لنفسه مع الناس برجل أوقد نارًا، فجعل الفراش والهوام تقع في النار، وهو صلى الله عليه وسلم يصدها عن النار وآخذ بحجزهم عن النار،[٤١] وهذا كله مؤسَّس على قول الله رب العالمين سبحانه: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"، (التوبة: ١٢٨)، وقوله تعالى: "فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر"، (آل عمران: ١٥٩)، وقوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد

[41] متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فقد رواه البخاري في صحيحه برقم: ٣٤٢٦، ورواه مسلم برقم: ٢٢٨٤، وبرقم ٢٢٨٥ من رواية جابر بن عبد الله.

بكم العسر"، (البقرة: ١٨٥)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين"،[٤٢] وقال لأبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: "ادعوا الناس، وبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا".[٤٣]

وهذا الأمر يقودنا أيضًا إلى ما يجب أن يتحلى به الداعية من أخلاق سامية يراعيها في خطابه، فلا بد أن يحرص على إرادة الخير للمدعو وأن يشعره بحرصه على إيمانه والتزامه ويتلطف له، ونلحظ هذا الأمر من خطاب الأنبياء لأقوامهم إذ قالوا لهم: "يا قوم" وهي عبارة مشعرة بانتمائه لهم وحبه لهم، ونلحظ ذلك أيضًا من تصريح بعض الأنبياء والصالحين لأقوامهم قولهم: "إني أخاف عليكم"،[٤٤] فلا بد أن يكون قدوة كي يتبعه الناس، وهكذا كان أنبياء الله تعالى، وخير مثال عليهم هو إبراهيم عليه السلام مع أبيه،[٤٥] وما أمر الله به موسى وهارون عليهما السلام من أن يقولا لفرعون الذي طغى: "اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى"، (طه: ٤٣-٤٤).

٢. أن تكون على بصيرة وعلم:

ومصداق ذلك قول الله تعالى: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين"، (يوسف: ١٠٨)، وهذا الأساس مرتبط بشكل مباشر بالخطاب، فلا بد من العلم، ولا بد له من أن يسبق العمل،[٤٦] وقد ورد عن

---

[42] رواه البخاري في صحيحه برقم: ٢٢٠، و ٦١٢٨.

[43] رواه مسلم في صحيحه برقم: ٢٠٠١.

[44] كما في قول نوح لقومه: "إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم"، (الأعراف: ٥٩)، وهو نفسه قول هود لقومه، (الأحقاف: ٢١)، وكما في قصة مؤمن آل فرعون حين قال لقومه: "إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب"، وقوله: "إني أخاف عليكم يوم التناد"، الآيتان: ٣٠، ٣٢ من سورة غافر.

[45] هناك أكثر من سورة توضح هذا الأمر، انظر على سبيل المثال الآيات: ٤١-٥٠ من سورة مريم، حيث تذكر أرق عبارات الترحم على أبيه رغم ضلاله وعدوانه على إبراهيم.

[46] انظر محمد أمين بني عامر، أساليب الدعوة والإرشاد، (مركز كناري، اربد، الأردن، ط/١، ١٩٩٨)، ص: ١٠٩.

معاذ بن جبل قوله: "العلم إمام والعمل تابعه"،[47] وبدونه فإن الداعي ربما يضر ولا ينفع، وينفّر ولا يشوّق، ويفرق ولا يجمع. فلا بد للداعي من أن يلم بجملة من العلوم المهمة في هذا المقام، إذ العلم مراتب، فهناك صلب العلم وملح العلم وما ليس من صلبه ولا من ملحه،[48] وأهم ما يركز عليه الداعية مقاصد الشريعة حيث الضروريات الخمس والحاجيات والتحسينيات ومكملات المصالح، ثم يعلم الأحكام الشرعية ودرجاتها، وأن الأحكام ليست كلها في درجة واحدة من حيث الثبوت، واختلاف مراتب الناس في علمهم وما يصلح لكل صنف، وشروط التصدي للمنكر، وفقه الأولويات وفقه الواقع وفقه الفروق.[49] ولا بد من أن نشير إلى أن الداعية المتعلم أكثر ثقة بنفسه من غيره، ولهذا الأمر انعكاسه على المدعو.

٣. الحكمة والموعظة الحسنة والقول الحسن، والمجادلة بالتي هي أحسن:

يقول الله تعالى: "وقولوا للناس حسنًا"، (البقرة: ٨٣)، ويقول: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"، (النحل: ١٢٥)، ويقول عن أهل الكتاب خاصة: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"، (العنكبوت: ٤٦). وهذا الأساس أيضاً مرتبط بالخطاب الإسلامي، ومن الحكمة مراعاة ما يلي:

---

[47] وقد وضع الإمام البخاري بابًا في صحيحه/كتاب العلم، عنوانه: "باب: العلم قبل القول والعمل" ولهذا الأمر أدلته من الكتاب والسنة، لمزيد معلومات انظر القرضاوي، يوسف، في أصول الدعوة: مقتبسات أعدها مصطفى ملائكة، (مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١، ١٩٩٩)، ص: ١٥-١٧.

[48] ذكر هذه التقسيمات أبو إسحق الشاطبي، إبراهيم، الموافقات في أصول الشريعة، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء)، ٤٣/١.

[49] وقد ذكر القرضاوي ستة مرتكزات للفقه الذي يحتاجه الداعية، وهذه المرتكزات هي: فقه الاختلاف، فقه الموازنات، فقه الأولويات، فقه النصوص في ضوء المقاصد، فقه الواقع، فقه التغيير، وقد جمعها مصطفى ملائكة في كتاب أصول الدعوة، (مرجع سابق).

أ. التدرج: وهذا أمر منطقي، إذ لا يعقل أن نطلب من الإنسان كل شيء في وقت واحد، والقرآن نفسه إنما نزل في ثلاثة وعشرين عامًا تدرج خلالها مع المؤمنين، وهنا لا بد من ملاحظة الأولويات، فالتركيز يكون على الأهم حيث الإيمان، ثم المهم والأقل أهمية، ومن العبث الخوض في الجزئيات والمطالبة بها وترك الكليات، فلا بد من التأسيس ثم الانطلاق في البناء كي يكون على أفضل ما يكون وأمتن ما يكون.[٥٠]

ب. مناسبة المقال للمقام: فقد قيل: "لكل مقام مقال"، وهذا يدل على ضرورة موافقة الكلام لمقتضى الحال، وهي البلاغة كما عرفها أهلها،[٥١] فلا بد من التعرف على نفسية المدعو وأحواله وثقافته كي يتناسب الخطاب مع المقام، وعمومًا فإن ثمة مؤثرات على الإنسان ينبغي الانتباه إليها ومراعاتها وهي: عوامل داخلية نفسية وعصبية، وعوامل خارجية حيث البيئة (الأسرة والجيران والأصدقاء...)، وعوامل مناخية وعوامل بيئية.[٥٢] كما أن الناس أصناف، منهم العالم والجاهل والصغير والكبير والغني والفقير، والمسلم وغير المسلم، ولكل أسلوبه.[٥٣]

ج. استغلال الفرص المناسبة للدعوة والتذكير والتي يشعر الداعي بأنها مناسبة للمدعو: فها هو نبي الله يوسف يعرض الدعوة على الفتيين في السجن عندما قصّا عليه رؤياهما، فدعاهما ثم أوّل لهما ما أرادا.[٥٤] ولا بد من الإشارة إلى التركيز على مرحلة

---

[50] انظر عبد الله الزبير عبد الرحمن، من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (كتاب الأمة، قطر، العدد ٥٦، ١٤١٧ هـ)، ص: ١١٧-١٢٢، ١٣٠-١٣٩.

[51] انظر السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، (دار الكتب العلمية، بيروت)، ص: ٢٩.

[52] لمزيد من التفصيل انظر محمد زين الهادي، علم نفس الدعوة، (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط/١، ١٩٩٥)، ص: ١٠٠-١٣٢.

[53] انظر عبد الكريم بكار، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، (دار القلم، دمشق، ط/١، ١٩٩٩)، ص: ٣٠٣-٣٠٤؛ أساليب الدعوة والإرشاد، (مرجع سابق)، ص: ٥٣، ٥٦.

[54] كما تبين الآيات: ٣٦-٤١ من سورة يوسف.

الشباب، فهم أكثر تقبلًا للمغيرات من كبار السن، إذ ما زالت شخصياتهم في طور الإعداد.[٥٥]

د. مراعاة الأولويات: أي وضع كل شيء في مرتبته، فلا يؤخر ما حقه التقديم أو يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير ولا يكبر الأمر الصغير، ولا ينظر إلى أمور الدين وأصوله وأحكامه وفرائضه وسننه وآدابه بنفس المرتبة، فأمور الاعتقاد أهم من العمل، والأركان أهم من غيرها، والفريضة أهم من السنة، وهكذا.[٥٦] ولا يعني هذا تجزيء الدين، بل لا بد من الشمول، ولكن بالتدرج ومراعاة الأهم فالمهم وهكذا.

هـ. الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار:[٥٧] يقول تعالى: "وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين"، (الأنعام: ٤٨)، وقال: "رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"، (النساء: ١٦٥)، وقال: "إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير"، (فاطر: ٢٤).[٥٨] ولا بد من تقديم الترغيب والتبشير على الترهيب والإنذار، ولعلنا نسترشد هذا من بعض الآيات وعلى ألسنة بعض الأنبياء حيث ورد الإنذار بعد الدعوة، بمعنى أن الأسلوب الغالب على الدعوة ينبغي أن يكون محاطًا بالتبشير والترغيب، وبعد ظهور علامات الإعراض فعندها يكون الإنذار، قال تعالى معلمًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل

---

[55] انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، (مرجع سابق)، ص: ٦٩-٧٠.

[56] في أصول الدعوة، مقتبسات من كتب الدكتور يوسف القرضاوي، (مرجع سابق)، ص: ١٩٥.

[57] جعل ابن كثير موضوع الترغيب والترهيب الأساس من موضوع الحكمة، انظر ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠)، ٥٩١/٢.

[58] انظر من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (مرجع سابق)، ص: ٨٣-٩٠، ١٠٨-١١٢.

صاعقة عاد وثمود..."، (فصلت: ١٣). ولعل المقصد الرئيس من الترغيب والترهيب هو مخاطبة جوانب النفس كلها، وتربية الوجدان الخلقي والشعور الديني عند المدعو.[٥٩]

و. تنوع أساليب الدعوة: ولعل في قصة نوح عليه السلام مع قومه خير دليل على ذلك، فقد قال الله حاكيًا حاله: "قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهارًا فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا، ثم إني دعوتهم جهارًا، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا"، (نوح: ٥-٩)، ثم انتقل معهم ليلفت أنظارهم إلى آيات الله في خلق السماوات والشمس والقمر والأرض، الخ. وها هو أيضًا مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه يتنقل من أسلوب لآخر في دعوة قومه، بالعقل وبالعاطفة وباستعراض التاريخ وبالترغيب وبالترهيب لعلهم يؤمنوا أو على الأقل يكفوا شرهم عن موسى عليه السلام، ولما استنفد جهده معهم قال: "فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد"، (غافر: ٤٤).[٦٠] ويدخل في تنوع الأساليب دعوة الخصم إلى التفكر بمعزل عن غوغائية المجموعة، فلما اتهمت قريش محمدًا صلى الله عليه وسلم بالجنون قال الله له: "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، (سبأ: ٤٦)، ومن هذه الأساليب ما يسمى بالدعوة الفردية، حيث مواجهة المدعو والمخاطبة عن قرب وسهولتها وبعدها عن أعين الناس ومساعدتها على كشف حقيقة المدعو ومشاعره.[٦١]

٤. الإصلاح:

---

[59] انظر دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، (مرجع سابق)، ص: ٦٩-٧٨.

[60] جاءت قصة مؤمن آل فرعون مع قومه في الآيات: ٢٨-٤٤.

[61] فيما يخص الدعوة الفردية انظر السيد محمد نوح، فقه الدعوة الفردية في المنهج الإسلامي، (دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ط/١، ١٩٩١)، ص: ٤١-٤٢.

وفي هذا يذكر ربنا ما قاله شعيب عليه السلام لقومه: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"، (هود: ٨٨). والإصلاح أمر زائد على الصلاح، فلا بد للداعية أن يكون صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره، ولن يكون من الناجين إلا بذلك، يقول تعالى في سورة العصر: "والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"، فالإيمان بالله وعمل الصالحات صلاح للنفس وتكميل لها، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر إصلاح للآخرين وتكميل لهم، ولا بد من الجمع بين الأمرين كي نتجنب الخسران.

٥. وجوب تبليغ الحق للناس والإعذار إلى الله:

وفي هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس"، (المائدة: ٦٧)، فتبين الآية أنه إن لم يكن التبليغ وإلا فهو التقصير الواضح في الدعوة. ويمكننا بيان أهمية هذا التبليغ من خلال قصة القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل، حين انقسم أهلها إلى ثلاثة أقسام، قسم اعتدوا في السبت، وقسم وعظ المعتدين، وآخر ساكت لم ينكر على المعتدين، بل كأنه اعترض على المنكرين وعظهم، فكانت النتيجة أن أنجى الله الذين ينهون عن السوء، وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون.[٦٢]

٦. التفاؤل ونبذ اليأس:

[62] القصة وردت في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: "واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا؟ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون"، (١٦٣-١٦٥).

ولهذا قال ربنا عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: "وما على الرسول إلا البلاغ المبين"، (النور: ٥٤)، وقال: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"، (يونس: ٩٩)، وقال: "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات"، (فاطر: ٨)، وقال تعالى: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء"، (القصص: ٥٦)، وقال للمؤمنين على وجه العموم: "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"، (المائدة: ١٠٥)، فالآية تدل على أنه لا بد من الدعوة والنصيحة، وبعد ذلك فلن يضرنا ضلال من ضل ما دمنا مهتدين مبلغين. ولعل في قصة نوح عليه السلام ما يطرد اليأس عن المؤمن، فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومع ذلك فما آمن معه إلا قليل. وفي آية جامعة يبين ربنا عز وجل أن الاستهزاء من المرسلين والدعاة أمر معهود ولا يؤدي إلى اليأس، قال تعالى: "يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون"، (يس: ٣٠).

٧. الإعراض عن الجاهلين وترك المراء والجدال:

ومن هنا يوجه ربنا عز وجل نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"، (الأعراف: ١٩٩)، وهي آية عظيمة تبين أمورًا ثلاثة، أخذ العفو، حيث الأخلاق العالية والرحمة بمن يدعو، ثم الأمر بالعرف، ثم الإعراض عن الجاهلين.[٦٣] وقد أكد ربنا هذا الأمر حين نهى أن يجالَس أهل الجهل والاستهزاء، فقال تعالى: "وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذًا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا"، (النساء: ١٤٠)، وقال: "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين"، (الأنعام: ٦٨).

---

[63] انظر تفسير القرطبي، (مرجع سابق)، ٢١٨/٧-٢٢٠.

٨. مراعاة أخلاق الداعية:

وعلى وجه التحديد الأمانة التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية، وهي من أهم أخلاق الداعية إضافة إلى الصدق، ومن هنا قيل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: "الصادق الأمين"، فالصدق فيما بينه وبينهم، والأمانة فيما بينه وبين الله، بأن لا يفرط في شيء من الرسالة، ولهذا ذكر الله في سورة الشعراء على ألسنة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لأقوامهم: "إني لكم رسول أمين".[٦٤] وعندما نذكر الأمانة والصدق فإن هذا يقود إلى التنبيه أيضًا إلى الأخلاق كلها، فلا يمكن للمدعو أن يثق بمن أخلاقه سلبية، فالحكم على الإنسان في مجموعه لا في جزئيات من شخصيته. ويدخل تحت هذا الموضوع أيضًا آداب التعامل مع الآخرين وخاصة آداب الخطاب.

[64] الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

المصادر والمراجع

- الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تفسير الآلوسي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت).
- ابن الأثير الجزري، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بتحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العلمية، بيروت).
- ابن حنبل، أحمد، المسند، (المكتب الإسلامي، بيروت).
- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر، تونس).
- ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، (دار الفكر، بيروت).
- ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣).
- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق عرفان عبد القادر حسونة العشا، (دار الفكر، بيروت، ط/٢، ١٩٩٨).
- ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، (دار الفكر، بيروت).
- ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠).
- أبو حيان ، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٠).
- أبو زيد، محمد، أثر الظروف النفسية والاجتماعية في سلوك الداعية، (دار الوفاء، القاهرة، ط/١، ١٩٩٢).
- أبو صير، محمد طلعت، أضواء من الدعوة الإسلامية، (مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط/١، ١٩٨٧).

- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، (موسوعة الحديث النبوي، الكتب التسعة، برامج صخر للكمبيوتر).
- بكار، عبد الكريم، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، (دار القلم، دمشق، ط/١، ١٩٩٩).
- بني عامر، محمد أمين، أساليب الدعوة والإرشاد، (مركز كناري، اربد، الأردن، ط/١، ١٩٩٨).
- توماس كوهن، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني والثقافة والفنون والآداب ١٩٩٢.
- دراز، محمد عبد الله، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، (دار القلم، الكويت، ١٩٨٠).
- الرازي، الفخر، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (مكتبة الإيمان، القاهرة، ط/١، ١٩٩٣).
- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم المسمى: تفسير المنار، (دار المعرفة، بيروت، ط/٢).
- سامر رشواني، الآخر المستبطن، نقد الخطاب الإسلامي الجديد.
- السايح، أحمد عبد الرحيم، في الغزو الفكري، (كتاب الأمة رقم ٣٨، ط/١، ١٩٩٤).
- الشاطبي، أبو إسحق: إبراهيم، الموافقات في أصول الشريعة، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء).
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧).
- عبد الحليم، محيي الدين، الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي، (دار الفكر العربي، القاهرة).

- عبد الرحمن،عبد الله الزبير، من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، (كتاب الأمة، قطر، العدد ٥٦، ١٤١٧ هـ).
- القرضاوي، يوسف، في أصول الدعوة: مقتبسات أعدها مصطفى ملائكة، (مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١، ١٩٩٩).
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٩٨٨)
- قطب، سيد، تفسير في ظلال القرآن، (دار الشروق، بيروت، ط/١٠، ١٩٨٢).
- المبارك، محمد، الإسلام والتيارات الفكرية العالمية، (دار القلم، دمشق، ط/١، ١٩٩٨).
- المسيري، عبد الوهاب، معالم الخطاب الإسلامي الجديد.
- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦، ط/٢.
- نوح، السيد محمد، فقه الدعوة الفردية في المنهج الإسلامي، (دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ط/١، ١٩٩١).
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، (موسوعة الحديث النبوي، الكتب التسعة، برامج صخر للكمبيوتر).
- الهادي، محمد زين، علم نفس الدعوة، (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط/١، ١٩٩٥).
- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة، (دار الكتب العلمية، بيروت).

، ص: ٢٣، ٢٥٧، ١٦٥.

[1] ص: ١٧٦.

1